الإسلام وحضارته في وسط أفريقيا

سلطنة البولالا

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

الناشر

مكتبة مدبولى



الإسلام وحضارته
في وسط أفريقيا
سلطنة البولالا

الطبعة الأولى
١٩٩٦م

مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب
ت: ٥٧٥٢٨٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الإهداء

إلى أمى

وعاء الأمن والأمان ... صدر الحنان ... وحجر الزمان ... ينبوع العطاء الفياض .. مفتاح الجنة .. وقبلة فؤادى .. وكعبة الامى .. وحلم أيامى .. قيم القيم .. درس العادات والتقاليد .. وبرهان الأعراف والمبادئ .. من وقفت خلف أبى رحمة الله عليه تدفعه إلى مواصلة المسيرة وتشد من أزره خلال درب الحياة فكانت نعم الأم ،،

عبد الفتاح مقلد

شعبان ١٤١٦ هـ
يناير ١٩٩٦ م



تمهيـــد

الإسلام فى حركته الامتدادية الواسعة والعميقة إنطلاقاً من الجزيرة العربية مبشراً البشرية برسالته الخالدة والباقية بقاء الزمن والراسخة رسوخ الجبال فى قلوب المسلمين وغيرهم الذين يتطلعون لمعرفة حقيقة وجوهر القرآن الكريم الذى استطاع أن يصل إلى آفاق بعيدة من الأقطار فى القارة الآسيوية والإفريقية والأوربية حاملا مشعل الحضارة والرقى والتقدم مخلصا الإنسانية من عبادة الطاغوت والإفراد والحكام والملوك هاديا لهم إلى عبادة الخالق الواحد الأحد الذى يساوى بين البشرية بأجناسها والوانها ولغاتها العديدة عاملا على الآخذ بيدها من حالة البدائية كما كان فى أوربا فى القرن التاسع الميلادى وقلب القارة الإفريقيه وبلاد جنوب شرق آسيا .

ومن المناطق التى وصلت إليها الراية الإسلامية مندفعا بعامل الأخوة الإنسانية تلك المنطقة التى تقدمها للقارئ فى وسط القارة الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى حيث منطقة السفانا الممتدة من ساحل البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسى . حيث إستطاعت حركة القبائل العربية المهاجرة الى القرب من بحيرة تشاد أو بحيرة فترى أن تكون بالاختلاط مع القبائل الوطنية بعد اعتنقها للدين الإسلامى أن تكون دولة البولالا التى تعتبر من الدول طويلة العمر حيث استمرت قائمة بالحكم فى تلك المنطقة طوال ستة قرون متصلة حتى سقوطها أمام الزحف الفرنسى الإستعمارى القادم من الشمال والغرب حيث بلاد المغرب العربى وبلاد غرب القارة الإفريقية للسيطرة على هذه المنطقة واضعا أياها تحت نفوذه ولقطع الصلة بينها وبين جيرانها من بلاد السودان وليبيا وتونس والجزائر ومصر .

وهكذا قدر لهذه الدولة الإسلامية كغيرها من الدويلات الإسلامية فى منطقة السفانا أن تخضع للنفوذ الإستعمارى الغربى الذى عمل كل ما إستطاع أن يعمله لكى يباعد بين هذه الشعوب وبين حضارتها الإسلامية العربية الراقية واضعا القيود على علاقاتها ومحدد أهدافه فى نشر لغته الفرنسية وثقافته وحضارة الغربية لكى تكون تك المناطق فى القارة

الأفريقية ركائز لها يستطيع أن يعيق منها حركة إمتداد الحضارة الإسلامية والدور الإسلامى مرة أخرى عاملا على نشر تعاليمه المسيحية بين شعوبه ضارباً اللغة العربية لغة القرآن الكريم لتحقيق الهدف الطويل فى طرب حضارة الإسلام من كل ركن من أركان العالم حيث توجد رعية إسلامية ولكن أحلامه فى تحقيق ذلك لن تكون إلا سرابا فعقيدة القرآن والإسلام قادرة على الصمود والتصدى من خلال الميراث الروحى الإلهى الخالد .

يناير ١٩٩٦

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الهادى البشير ، سيدنا محمد بن عبد اله النبى الخاتم وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين أما بعد فتلك هى دراسة عن سلطنة البولالا الإسلامية التى هى إحدى سلطنات السودان الأوسط والتى ظهرت على مسرح الأحداث السياسية كسلطنة إسلامية وقوة سياسية وعسكرية منذ القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى وظلت كذلك تمارس دورها على مسرح الأحداث فى تلك المنطقة حتى الربع الأول من القرن العشرين الحالى ، الرابع عشر الهجرى وقد تكون هذه السلطنة هى أطول السلطنات الإسلامية فى منطقة السودان (الشرقى - الأوسط - الغربى) عمرا حيث توارث عرشها أبناء سلاطين البولالا والذى استمر ما يقرب من ستة قرون متواصلة . وقد أردت بتلك الدراسة القاء الضوء على صفحة مطوية من صفحات التاريخ الإسلامى فى السودان الأوسط حيث لم يسبق التعرض لدراسة تلك السلطنة من الكتاب والمؤرخين الأجانب وكذلك المؤرخين العرب والمسلمين وقد تكون لكل هؤلاء أعذارهم فى عدم الخوض فى تفاصيل دراسة تلك السلطنة حيث أن تاريخها كان يتشابه نوع من الغموض وعدم الوضوح ، لكن بعون الله العلى القدير استطعت أن أقدم تلك الدراسة التى أرجو أن تكون بداية للمتهيمن بدراسة التاريخ الأفريقى الإسلامى لاسيما أن الكثير من الأخوة الباحثين بعزف عن الخوض فى دراسة مناطق السودان الأوسط والسودان الغربى .

وقد قسمت تلك الدراسة إلى سبعة أبواب رئيسية تناولت بالدراسة والبحث فى الباب الأول وتحدثت فيه عن قبائل البولالا وأصولهم العرقية والآراء التى ذكرت فى ذلك المضمار وصلاتهم بأبناء عمومتهم حكام كانم من الأسرة السيفية وكيف تحالفت تلك القبائل مع غيرها من القبائل الأخرى سواء أكانت قبائل عربية أو بربرية أو زنجية وذلك لتأسيس وتكوين دولة لهم وكان الباب الثانى عن تأسيس دولة البولالا واتساعها . وكيف ظهرت فى تلك المنطقة السلطنة الإسلامية حول بحيرة فترى وبالقرب من نهر ياء You وكيف سميت سلطنة جاجو GaoGo وكيف ظهر سلاطينهم كقوة مؤثرة فى منطقة السودان الأوسط وكيف بسطوا نفوذهم على ابناء عمومتهم فى كانم وكيف كانت مدينة ماسيا عاصمة أولية لهم ثم نقلوا مقر حكمهم إلى مدينة ابا كالا وكيف توسعوا فى تلك المنطقة المحيطة ببحيرة فترى وقامت سلطتهم فى ذلك الجزء من السودان الأسط والسيطرة على مناطق واسعة

حتى غدت سلطنتهم من أكبر سلطنات تلك المناطق بالقياس إلى سلطنة واداى وباجرمى التى كانت أجزاء من سلطنة البولالا فى القرن الرابع عشر الميلادى وما هم السلاطين الذين تولوا حكم تلك السلطنة .

أما بالنسبة للباب الثالث فهو عن الصراع ضد سلطنة الكانم وكيف ظهر الصراع بين أبناء العمومة منذ بداية تولى السلطان الأكبر عبد الجليل أوجل سيكوبامى وطرد السلطان عمر بن عثمان بن إدريس سلطان كانم من العاصمة نجيمى ونقل مقرا السلطنة إمن نجيمى إلى برنو واستمرار الصراع لفترة تزيد عن قرنين من الزمان ثم كيف بدأ شعب البرنو وسلاطينهم يفكرون فى استرجاع املاك اجدادهم وكيف تغيرميزان القوى لصالح برنو وسلاطينهم وثم استعاده كانم نهائيا من البولالا .

ثم كان الباب الرابع عن الأحوال العامة بدولة البولالا حيث تحدثت عن المظاهر الإقتصادية والموارد الزراعية والنباتية بالبلاد واشتغال الأهالى بحرفة الزراعة والرعى وصيد الأسماك وما هى الحيوانات التى كانوا يهتمون بتربيتها وكيف اهتموا بتربية الخيول عماد قوتهم العسكرية ، وما هى الحرف الصناعية التى كانت عندهم مثل بناء السفن والقوارب وصناعة الحديد والفخار وكيف استفادت من ذلك الموقع الجغرافى فى تنمية موارد الدولة وكيف لعب الطريق الصحراوى المؤدى إلى طرابلس - فزان - زويلة - كوار - بلما إلى زيادة الحركة الإقتصادية فى البلاد وكيف أفردت جزاء كبيرا فى ذلك الباب للحديث عن ذلك الطريق ودوره التجارى وتحدثت عن المواد التى كان يتم التعامل بها كالخرز والنحاس والقماش وقطع الملح وغيرها من المواد التى يتعارف عليها كعملة سائدة فى البلاد .

ثم كان الباب الخامس فى تلك الدراسة عن الحياة العلمية والثقافية والفكرية فى البلاد وكيف أنه كانت توجد بها حركة علمية وفكرية إسلامية وكيف انتشرت بها اللغة العربية وظهرت بها مراكز حضارية لكنها لم تصل إلى درجة المراكز العلمية فى السودان الغربى كتمبكتو وجنى وجاو وولاته وغيرها من السلطنات الإسلامية والمراكز الإسلامية الأخرى وذلك لغلبة طابع البداوة على السكان واشتغالهم بالقتال والفنون العسكرية لكن تلك السلطنة قد طبعت بالطابع العربى الإسلامى شأنها شأن غيرها من سلطنات السودان الأوسط والسودان الغربى وكيف أشار إلى ذلك الحسن الوزان حيث شاهد بنفسه تلك المظاهر الحضارية الإسلامية ومدى تشجيع السلاطين لها وكيف كان فرض النفوذ السياسى على كانم فرصة طيبة لتعميق وتوسيع حركة المد الإسلامى وانتشار مظاهر الحضارة العربية الإسلامية وثقافتها.

وكان الباب السادس عن علاقة البولالا بالعالم الإسلامي وفيه ركزت على دور مصر السياسى والثقافى والإقتصادى باعتبار أن مصر هى القوة الأساسية والرئيسية فى العالم

الإسلامى منذ القرن الثامن الهجرى حتى القرن العاشر الهجرى ، الرابع عشر الميلادى - السادس عشر الميلادى وكيف مارست مصر أدوارها المختلفة مع تلك السلطنة وكذلك أشرت إلى علاقة البولالا بطرابلس وفزان وزويلة وتونس وبقية انحاء العالم الإسلامى كالسودان الشرقى وبقية أقطار السودان الأوسط والغربى .

ثم كان الباب السابع وهو خاتمة الأبواب فى تلك الدراسة عن نهاية سلطنة البولالا كقوة سياسية مؤثرة وفعالة فى منطقة السودان الأوسط وكيف تدهورت الأمور السياسية بها وخضعت لنفوذ واداى واستقلال باجرمى عنها وكيف قدم إليها فى القرن التاسع عشر رابح الزبير وقدوم رجال الإستعمار الفرنسى والإنجليزى وانتهاء آخر سلاطين البولالا عام ١٩٢٢م - ١٣٤١هـ - وكيف كون رابح الزبير سلطنته العربية الإسلامية فى ذلك الجزء من القارة الأفريقية وكيف قوض رجال الإستعمار الفرنسى هذه السلطنة .

ثم كانت خاتمة ذلك البحث وهى خلاصة ما توصلت إليه من نتائج فى تلك الدراسة وبعدها قائمة المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها .

وفى النهاية فأنى أرجو أن أكون قد استطعت أن أقدم للمكتبة العربية أن لم يكن لغيرها تلك الدراسة التى أرجو أن تكون فاتحة لدراسات أعمق وأشمل لكل الذين يهتمون بالدراسات الأفريقية وخاصة التاريخ الإسلامى الأفريقى كما أرجو أن يتجاوز كل الذين يطالعون تلك الدراسة عن بعض القصور والشمول فى هذا الجانب لأن تلك الدراسة لم تصل إلى حد الكمال المطلوب لأن الكمال الأمثل لله وحده ولأن فوق كل ذى علم عليم

والله ولى التوفيق ،

يناير ١٩٩٦

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى



الباب الأول
قبائل البولالا



استمدت قبائل البولالا اسمها من اسم أول زعيم لهم وكان يدعى بابليا وذلك على شكل صورة بابا على ولقد كانت أصولهم العرقية والجنسية لفترة طويلة من الدهر مصدرا للافتراضات بحثا عن حقيقة تلك الصورة وأن كانت تلك الإقتراحات لم تستطيع أن تصل إلى نتيجة نهائية بشأن أصول تلك القبائل وكل ما استطاع الوصول إليه هو افتراضات نظرا للاختلاط والتزاوج والإنصهار فى قبائل عديدة حيث أنه يندر وجود اجناس نقية الا فى المناطق المعزولة ولما كانت منطقة استقرار البولالا هى منطقة وفود العديد من القبائل فأن ما يمكن قوله أن قبائل البول « البلالة » أو الفولبية ومفردها يوللوى ينتمون فى السودان الغربى نحو الشكل الزنجى عن طريق الزواج بينهم وبين التجربتين وهم قوم محاربون رحل ، يطوفون بالأقاليم فيما بين نهر السنغال ونيجيريا وتنحدر جماعاتهم الأولى من جهة الأطلس استمرار إلى شرق بحيرة تشاد حيث ظلت الإقتراضات الخيالية البالغة الغرابة حيننا من الدهر مصدرا لأصولهم الخفية لكن يبدو أنه فى المظنون اليوم أنهم وفدوا من الشرق وأنهم نتاح اختلاط الأثيوبيون بالسود والعرب (هذا هو رأيى) وهناك عدة آراء أخرى نذكرها فى حينها .

والأفراد الذين تتكون منهم هذه القبائل ذو قوام ممشوق وجلد أسمر سمرة نحاسية وشعر مموج وشفتين رقيقتين وأنف مقوس ووجه مستطيل يكاد يكون رآسيا ولا بروز للفك عندهم لقبائل البولالا (بوروررو) بشكل يبتعد فى تكوينه كل الإبتعاد عن شكل الزنوج ولقد ظلت قبائل البولالا رعاة وسط الفلاحين السود شأنهم فى ذلك شأن الآثيوبيين الذين هم فى الأصل رعاة ولو أنهم قد يلغون عصا السيار فى بعض الأماكن ليزرعوا هم الأخرون ولكن الغاية المتسلطة عليهم من وراء هذا الزرع هو الرعى فى نهاية الأمر .

وهناك أقوال تذكر أن البولالا أبناء عمومة الحكام الماغومين (حكام كانم) وهم كما ذكر فرع من الأسرة السيفية (نسبه) إلى سيف بن ذى يزن من حمير اليمنى وهى الأسرة السيفية التى حكمت كانم وبرنو منذ القرن التاسع الميلادى تقريبا (الثالث الهجرى) .

وكلمة بولالا مكونة من لفظين بو أو بو وابلالا أو ابلالا ومعناها أحرار الطوارق أو نبلاء الطوارق أى أنهم من الطبقة التى تنسب إليها الأسرة الماغومية ويعرفون كذلك باسم كى ابلالا أى بنفس المعنى أحرار الطوارق .

ويقال أن البولالا من العناصر التى نتجت عن مصاهرة عرب الشوا وهم العرب المقيمون فى منطقة بحيرة تشاد حيث كان عرب الشوا يعيشون شرق برنو ويكونون جزء من سكانها وكانوا مجموعة واحدة كما يذكر أيضا أن مصاهرتهم مع عرب الشوا ومع الوطنيين الزنوج قد نتج عنها هؤلاء القوم الذين تطلق عليها البولالا ، أو عن المصاهرة التى تمت بين طوارق

أو جبلا وفزان ، كذلك كان اختلاطهم مع العديد من القبائل المتعددة حول بحيرة فترى من جهة أخرى والتى منها قبائل الكوكا KoKa .

ولاشك أن الإختلاط والمصاهرة والإنصهار والتزاوج أمر مألوف ومعروف منذ أقدم العصور بل أنه مؤكد تمام التأ كيد بين العرب والزنوج والبربر ، والراجح أن أصول البولالا بربرية مع التأثر بالدماء العربية .

وقد جاء فى المخطوطات العربية التى عثر عليها فى بلاد البرنو أن أصل البولالا من العرب اليمين وأن أول سلاطينهم شخص يدعى محمد قيل أنه جاء من الشرق إلى الغرب ومن سلالته زعماء البولالا الذين حكموا من منطقة فترى ثم سيطروا فيما بعد على أجزاء كبيرة من بلاد كانم .

وتذكر بعض الروايات أن سلاطين البولالا قد تمسكوا بالأصول البربرية وهناك أغانى وأناشيد Palmer وذكرها بالمر فى كتابة صحراء برنو والسودان ، وقد تغنوا بهذه الأناشيد لسلاطينهم ومن خلال هذه الأغانى فأنه يتضح لنا السبب والأصل البربرى ، كما أنهم كأبنء عمومتهم السيفين حكام كانم وبرنو أدعوا وانتحلوا لأنفسهم أصولا عربية شرقية وادعو أنهم من سلالة سيف بن ذى يزن كذلك .

وقد كانت ظاهرة الإنتساب إلى الأسماء العربية والأصول العرفية الإسلامية تقليد شائع فى بلاد غرب أفريقيا وفى بلاد السودان الغربى والأوسط كلها حيث لا نكاد نجد أسرة حاكمة فى هذا العصر إلا وقد أصطنعت لنفسها نسبا عربيا سلاطين البولالا وكانم وبرنو أنسبوا إلى سيف بن زى يزن من حمير اليمن وسلاطين مالى أدعو الإنتساب إلى عبد الله بن صالح بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وسلاطين سنغى (سنغاى) إتخذوا مثل هذا النسب العربى وهذا كله لكى يكسبوا صبغة إسلامية كاملة وليفوزوا برضا الرعية وتقدير المعاصرين وليفسحوا لأنفسهم مجالا فى الحياة الإسلامية الدولية .

كما أن بعض الاراء تنسب البولالا إلى أسرة الماغومى والذين ظهرت دولتهم فى مطلع القرن التاسع الميلادى والذين ظلوا يسيطرون على منطقة كبيرة وواسعة فى جنوب كانم وحول بحيرة فترى حيث كانت لهم عاصمة قرب بحيرة فترى والمغوميون هم الاشراف النبلاء ، سلف الزغاوين وكان هؤلاء هم حكام كانم وبرنو لمئات من السنين وكان المغوميون مجرد فرع أو عشيرة لعناصر الصحراء الملثمين المعروفين بالطوارق والذين يدعى البولالا كما سبق أن ذكرنا الإنتساب إلى البربر لكن حين تعود لعلاج مسألة الإنتساب إلى الأصل الحميرى يحيث ادعوا أن جدهم الأكبر سيف بن ذى يزن فإن ذلك يحتاج إلى بحث طويل

للأصول العرقية حيث أن جدهم الأكبر قد قدم وابنه محمد مؤسس أسرة البولالا من الشرق نجد أنه من الثابت علميا أن سيف بن ذى يزن وابنه قد ماتا باليمن لكن قوائم سلاطين البولالا تدعي الإنتساب إلى هذا الجد الأكبر حيث نذكر أنهم أبناء عمومة السيفين حكام كانم وبرنو وأن سيف هذا هو أول ملوك كانم برنو والبولالا حول بحيرة فترى وأنه جاء كما نذكر ذلك أساطيرهم هو وابنه من مكة المكرمة وحكم فترة تصل إلى عشرين عاما لكنه مات في مدينة سامينا عاصمة الزغاوة قرب بحيرة فترى ، كما أن السجلات التى عثر عليها تذكر أن إبراهيم بن سيف بن ذى يزن هذا قد حكم ستة عشرة عاما وقيل خمسين عاما .

والملاحظ أن النسبة إلى سيف بن ذى يزن الحميرى وهى التى يتمسك بها سلاطين البولالا كما تمسك بها ما يأت كانم وبرنو وسجلتها وثائقهم ورسائلهم ، إنها سجلت فيما بعد بدليل أننا نجد أن الماى عثمان بن إدريس (١٣٩٢ - ١٤٢٤م) وهو السلطان الثالث والثلاثين فى سلسلة سلاطين كانم ذكر فى رسالة بعث بها إلى السلطان المملوكى فى القاهرة السلطان الظاهر برقوق فى عام (٧٩٤ هـ/ ١٣٩٢) وقد أوردها القلقشندى حيث يشكو فيها من اعتداءات عرب جذام على بلاده يذكر فيها أنه من سلالة سيف بن ذى يزن وعبارته (نحن بنو سيف بن ذى يزن والد جدنا العربى القرشى ، كذا ضبطناه عن شيوخنا ولقد كان لمساعدة عرب جذام لبولالا جانب آخر تذكره فى حينه وكما ادعى البوللا النسب إلى سيف بن ذى يزن أدعى سلاطين برنو وكانم أنهم ينحدرون عن سيف ربن ذى يزن أيضا وقالت سجلاتهم أن أسرته حكمت أولا فى كوار حوالى عام ٨٥٠ ميلادية ثم تحالفت هذه الأسرة مع قبائل التيبو أو التيدا وفتحوا معا الجزء الجنوبى من الصحراء واتسعوا تدريجيا حتى شمل نفوذهم من واداى شرقا إلى النيجر غربا .

والحقيقةة أن قصة الإنتساب إلى سيف بن ذى يزن والصلة بقريش كما أدعى سلاطين كانم وبرنو وسلاطين البولالا خرافة روج لها مؤرخو بلاط هذه البلاد وهى جزء من عدد كبير من الأساطير التى احتفظت بها سلطنة البولالا وكانم وبرنو وحرصت عليها لأنها تتصلق بأصولها ومن هذه الأساطير ما تقول أن الطبقة الحاكمة فى برنو وهى طبقة الماغومين النبلاء قد انتقلت من شواطىء البحر الأحمر ومن الشرق إلى أرض فترى وكانم .

هذا بالإضافة إلى اسطورة الإنتساب إلى النسب السيفى القرشى وما فيها من تناقص فأن هناك كما سبق أن ذكرت الإدعاء أيضا البولالا وكانم أورد ذلك العمرى والقلقشندى بصدد حديثهما عن كانم (وقد جاء منهم حتى من ادعى النسب العلوى فى بنى الحسن.

وكذلك فإن كل الممالك فى تاريخ الدول الإسلامية التى نهضت فى بلاد السودان الغربى والأوسط عامة ، أن الأصول العربية والنسب العلوى قد انتحلها الكثير من الأسر

الحاكمة فضلا عن القبائل التى اشتهرت فى التاريخ فى تلك البقعة ومن أمثلة ذلك ملوك مالى وملوك التكرور ، بل أن قبائل التورا Tara فى منطقة بحيرة تشاد قد ادعت أنها تنحدر مباشرة من النبى صلى الله عليه وسلم وكذلك ادعت قبيلة جوبير وهى احدى امارات بلاد الهوسا وقبائل اليوريا فى شمال نيجيريا والبييدا والبروم والبوسا أنها وفدت إلى تلك الأنحاء من غرب أفريقيا من ضواحى مكة المكرمة أصلا .

على أن مثل هذه الإدعاءات لم تظهر إلا بعد انتشار الإسلام والحضارة العربية الإسلامية فى تلك الجهات وبعد أن ظهرت تلك القبائل القوية الأفريقية على مسرح التاريخ القومى الأفريقى وكونت لها أمبراطوريات واسعة متقدمة .

والخلاصة أن الأسرة الحاكمة التى قامت حول بحيرة فترى من البولالا ثم بعد ذلك سيطرت على كانم ترجع فى اصولها العرقية إلى البربر الطوارق سواء أكانت من الزغاوة أم من الماغومين غير أن ذلك لا يمنع من بروز الأثر العربى والدماء العربية فى منطقة بحيرة تشاد وحول بحيرة فترى الصغيرة وماجاورها من أقاليم .

لكن هناك تفسيرا آخر يفسر الأصول العربية للبولالا فى ذلك قيام عرب بنى جذام فى مساعدة البولالا فى صراعهم ضد سلاطين كانم وبرنو ومن ذلك ما ذكره السلطان عثمان بن إدريس فى رسالته إلى الظاهر برقوق سلطان مصر حتى أن اعدائنا من البولالا قد تحالفوا مع الأعراب من بنى خذام الذين فسدوا فى أرضنا كلها كافة ، بل أن البولالا قد تحالفوا مع عرب جذام وغيرهم من الأعراب ومن ثم أغاروا على سكان كانم وذلك سبب فتنة وقعت بين كانم والبولالا أعداء ما يأت كانم مما أدى إلى قتل السلطان عمر بن إدريس .

وصله البولالا بأبناء عمومتهم حكام كانم وبرنو الماغومين صلة وثيقة حتى قبل أن الفريقين كانا يزحفان معا حوالى القرن التاسع الميلادى نحو الجنوب الغربى وانتشروا فى المنطقة الممتدة من وادى بحيرة فترى وعرفت هذه العاصمة كذلك باسم تاجواو داجو وهى من المدن الزغاوية المشهورة فى ذلك الوقت أى فترة حكم وسيادة الأسرة الماغومية.

وقد حكم الماغومين أبناء عمومه البولالا والذين تحركوا سويا فى الماضى إلى تلك المنطقة وأن فترة حكمهم كانت فى الفترة الأولى على مدينة اسبن Asben والتى تعرف باسم اير أيضا والواقعة غرب بلما والتبستى وشرق أغاديس وفى الشمال الغربى من بحيرة تشاد وقد كان حكمهم قد قام على هذه المنطقة فى الفترة التى كانت فيما بين سنوات (١١٥٠/ ١٢٥٠م ـ ٥٤٥/ ٦٥٠هـ) وعندما نشبت الحرب الأهلية فى حوالى عام ٧٥١ هـ ، ١٣٥٠م بين البولالا الذين استقروا حول بحيرة فترى وبين أبناء عمومتهم حكام كانم برنو ، فإن ذلك كان قد أدى إلى إرتخاء قبضه الحكام المغومين الطوارق أصلا على مناطق نفوذهم فيها .

كذلك فإنه ليس هناك أدنى شك فى أن إختلاط أهل كانم مع برنو هو الذى أوجد العنصر القوى الذى يمكن أن يفسر بأن سلالتهم من الأمراء وهم الذين حكموا منطقة كانم أولا ثم أضطروا إلى الرحيل سبب أبناء عمومتهم من البولالا إلى جنوب غرب بحيرة تشاد (برنو) والتى تذكر الأساطير أن أهلهم من العرب وهو ما درج عليه حكام البولالا ربط أنفسهم بالنسب العربى .

وهناك أسطورة تدعى أن البولالا قد شقوا طريقهم مع أبناء عمومتهم الماغومين السيفين الذين كانوا يتحركون سويا حتى وصلوا إلى قرى كانم فأفتتحوها وكان احتلال البولالا للأرض الواقعة فى برقو Borku حيث يطلق هذا الإسم الذى كان منطقة بداية احتلال البولالا لتلك المنطقة على سكان منطقة ذات اشجار كثيفة وهى منطقة من بحر الغزال الذى يصب فى بحيرة تشاد وهو غير النهر (الفرع) الموجود فى السودان الشرقى وهو إلى الجنوب من بحيرة تشاد . وتلك المنطقة تقع فى اعالى التبست والانيدى وهى تمتد عن طريق نهر بحر الغزال إلى بحيرة تشاد ولم تكن لهذه المنطقة حدود معينة توضح معالم الرقعة التى يسكنها البولالا وكانت برقو الحد الشرقى ثم منها إير Air بل أنها امتدت من برقو إلى دركو فى الشمال وملكوا الأسواق الكثيرة العددوأصبحوا ذوى نفوذ وقوة كبرى كما أستولوا على خيول عظيمة العدد ،

وهناك أقوال تؤكد أن البولالا هم نتاج تزاوج بين ثلاثة أجناس هم الأثيوبين والزنوج والعرب وصورتهم أبعد ما تكون عن أشكال الزنوج ، الا أنهم يقتربون اليوم إلى الشكل الزنجى بسبب المصاهرة المستمرة بينهم وبين النيجيرين .

والبولالا فى الأصل رعاة آبل وربما كانوا أصلا وثنيين محافظين على وثنيتهم ثم دخلوا الإسلام أفواجا وفى ذلك الوقت بدأ دورهم يتعاظم فى تلك المنطقة . والبولالا هم الكابى ويقصد به مصطلح نبيل عند بعض القبائل ويسمون بصفة زعامة فى برنو باسم كلى بلالا .

وقد انحدر زعماء البولالا من أحد فروع الأسرة الحاكمة فى كانم وكانوا يحكمون البلاد التى حول بحيرة فترى ، شرق بحيرة تشاد ويذكر بالمر أن البولالا قد استوطنوا منطقة الصحراء الكبرى ثم انتشر نفوذهم فيما بعد دخولهم الإسلام .

وقد نجح البولالا فى اقامة امبراطورية واسعة حول بحيرة فترى إذ أقام لهم أبوهم اجل سكوتيمى بن دونا ما ويلا مركزا قويا على حدود البحيرة وسيطروا على عدة قبائل فى كوكو وفى المنطقة الواقعة من برقو إلى دوكو ، ومن ذلك فإن تاريخهم يدل على أن برنو وبابلية وبلالا تنسب كلها إلى أصل واحد هو حمير كما أدعو ذلك .

وقد كانت مملكتهم تحد غربا مملكة البرنو - كانم وتمتد شرقا مع النوبة وتلتقى فى الجنوب مع صحراء معينة على جزء متعرج من النيل ، كما تحد شمالا بمصر وكان طولها خمسمائة كيلو متر وعرضها أيضا خمسمائة كيلومتر أيضا وأن سكانها كما ذكر ذلك الحسن الوزان (ليو الأفريقى) غير متعلمين وهم همج لاسيما أولئك الذين سكنوا الجبال منهم ، كما أنهم كما ذكر الحس الوز أن عن سكان الجبال أنهم كانوا وقت زيارته فى القرن الخامس عشر لازالوا يسيرون عراة فيما عدا ما يستر عورتهم وكانت منازلهم من الخشب والحطب وكثيرا ما تعرضت للحريق وملكوا كثيرا من الماشية وكان إهتمامهم بها يفوق كل اهتمام .

***

الباب الثانى

تأسيس سلطنة البولالا

واتساعها



بعد أن بسط البولالا نفوذهم على تلك المنطقة الواقعة حول بحيرة فترى إلا أن أخبارهم كقوة ذات شأن ونفوذ وسيادة لم تظهر وتتضح فى تلك الإنحاء فى السودان الأوسط إلا منذ القرن الثانى عشر الميلادى عندما ملكوا الخيول بوفرة وعرقوا بالفروسية ومن هنا فإن خطرهم قد بدأ يهدد جيرانهم من الغرب وأبناء عمومتهم من الماغومين حيث الأسرة الحاكمة فى كانم ، حيث تحالف البولالا مع قبائل جذام العربية ، وهناك بعض الكتاب الذين يطلقون على تلك القبائل العربية نجيزام وإن كان اسم نجيزام يختلف عن اسم جذام حيث أن قبائل نجيزام Ngizam هى من القبائل الوطنية المستقرة فى منطقة بحيرة فترى ، فى حين أن قبائل جذام العربية وهى قبائل وافدة من مصر وقد تحالفت مع البولالا فى بعض الفترات التاريخية من أجل تقويض نفوذ الماغومين حكام كانم ، وأن كان البولالا قد تحالفوا أيضا مع تلك القبائل الوطنية على اقامة مملكة مستقرة فى أرض كانم حيث استقروا فى مدينتى بالاك وماسيو أو ماساوا شمال بحيرة فترى وشرق كانم ، حيث كان ذلك قبل أن يتخذ الماغومين مدينة بلالا عاصمة لهم ومعنى ذلك فإن البولالا قد أقاموا مملكة لهم شرق كانم وشمال بحيرة فترى وقد أطلقوا على الطبقة الحاكمة منهم اسم ماجى أو ماجود -Mag gode / Magge .

لكن القرن الرابع عشر الميلادى ومع بدايته عندما انتشر الإسلام على نطاق واسع بين صفوف شعب البولالا فإن ظهورهم على مسرح الأحداث السياسية فى السودان الأوسط قد بدأ يأخذ بعيدا جديدا ذلك لأن اعلان سلطاتهم إتخاذ العقيدة الإسلامية منهجا له ولرعيته ومن ثم حمل سلطاتهم لقب ملك الناس ، حيث كان دخولهم للإسلام قد اتخذا اتجاها آخر نحو العربية والإسلام اذ أن اختلاطهم بالقبائل العربية من بنى جذام وأولا حمد ومع شعب التيو قد ساعد على معرفتهم والمامهم باللغة العربية واتخاذها لغة لهم والتحدث بها كما أن القرن الرابع عشر الميلادى ، الثامن الهجرى ، قد شهد ازدياد قوة البلالة العسكرية وارتفعت مكانتهم السياسية فى منطقة السودان الأوسط ولم يلبثوا أن استغلوا هذه القوة العسكرية ضد حكام كانم سبب ما بينهم من خلافات ، بل أن مطامع البولالا وخطرهم على الماغومين أبناء عمومتهم قد ازداد .

وسلطنة البولالا قبل الدخول فى صراع مع سلاطين كانم وتوسيع رقعة السلطنة كما اشار إلى ذلك الحسن الوزان فى كتابة وصف أفريقيا من إقليم تياخم إقليم كانم برنو فى الغرب ويمتد شرقا حتى حدود مملكة النوبة التى تقع على النيل وتنهى جنوبا بصحراء تتاخم أيضا عسكا بضفة النيل وتمتد شمالا حتى صحراء سيرت فى ليبيا وحدود مصر الجنوبية الغربية وهى تمتد شرقا من مسافة خمسمائة ميل تقريبا وعرضا على نفس المسافة تقريبا

لكن من الطبيعى فإن الذى ينظر إلى حدود هذه السلطنة بهذا الوصف وتلك الصورة التى أشار إليها الحسن الوزان قد تكون مبالغ فيها فمملكة البولالا المعروفة باسم جوجبا كانت تتاخم فى اتجاه الغرب كانم حيث هى جزء من كانم فعلا وكانت حدودها فى سائر الجهات غامضة جدا ، ففى الشرق حيث لم تكن مملكة النوبة قد قامت فعلا قبل عام ١٥٠٤م كانت القبائل العربية تتوغل حينئذ حتى دارفور (وقع مترجم كتاب وصف أفريقيا في خطأ تاريخى حيث أن مملكة النوبة قائمة منذ فترة قديمة وقبل القرن الثالث الميلادى حيث أشتبك معهم العرب فى صراع منذ عام ٢١هـ / ٦٤١م منذ دخول الإسلام إلى الأراضى المصرية ، إضافة إلى توقيـع عبد الله بن سعد بن أبى سرج لمعاهدة البقط مع النوبة عام ٣١ هـ / ٦٥١م) .

وكذلك وقفت حدود سلطنة البولالا شمالا فى الصحراء الليبية حيث كانت تلك المنطقة مؤهلة سكانيا بقبائل التيبو وفى الجنوب كانت القبائل العربية تتوغل حينئذ حتى دارفور ولا بعد من ذلك ومن الجنوب كانت تصطدم بقبائل عديدة فى بلاد نهر شارى وروافده .

ولقد شهدت البولالا عمقا تاريخيا بدأ بسلطانهم الأول محمد اليمانى الذى قدم إلى منطقة نهر شارى أو بحرشا BahrSau فى طريقه إلى الغرب لكنه مات فى أرجله بعد أن بسط نفوذ البولالا ولقد خلفه من بعده إبنه السلطان صالح Salih الذى نجح فى تكوين وتوطيد دعائم العرش للبولالا وقد حكم إثنى عشرة عاما ثم مات بعد ذلك ، ثم خلفه على عرش البولالا السلطان محمد ألوان alwan والذى حكم أربعة وعشرين عاما قضاها كلها فى العمل على توطيد نفوذ البولالا وبسط سيطرة هؤلاء القوم فى منطقة تشاد حول بحيرة فترى ومحاولة توسيع رقعة السلطنة وبسط النفوذ على القبائل المختلفة الزنجية التى تتوطن تلك المنطقة ولقد قام أحد سلاطينهم وهو السلطان جل Jil سلطان البولالا بتأسيس أول عاصمة للبلاد حيث إتخذها مقرا لحكمة وهى مدينة ماسيا Masiu كما قام بتأسيس مدينة أخرى عرفت باسم مدينة أبا كالا Abkala وقد مات ذلك السلطان وخلفه على الحكم السلطان (جوراب أبو مانجو) Jourab Abu Mango سلطان مارشو Marsho وقد نجح جوراب هذا فى الوصول إلى منطقة بحيرة فترى حيث استطاع أن يدخل فى معارك طاحنة وعنيفة مع السكان المحلين الذين كانوا يقطنون حول بحيرة فترى والذين كانوا يستقرون حولها والذين كان يطلق عليهم بنى كوكا Beni KoKa والذين كانوا يخضعون لسلطان تطلق عليه المصادر السلطان على دينار جورجا Dinar Gorga واستطاع أن يهزمه وأن تخضع شعبه لنفوذ البولالا ، ومن ثم طاب للملك ورعيته المقام حول بحيرة فترى حيث أتخذوا تلك المنطقة موطنا للإقامة بها ومن ثم عملوا على تطوير تلك المنطقة واعدادها للسكن وأختلطوا

مع سكانها مع شعبة البولالا وقد مات السلطان مارشو بعد أن حقق تلك الإنتصارات على سكان منطقة بحيرة فترى وبعد أن أتاح لأبناء شعبة من البولالا بالسيطرة على شعوب تلك المنطقة والإختلاط بالسكان المحليين المسمين بنى كوكا وخلفه على عرش تلك المنطقة الجديدة حول بحيرة فترى وقيادة مسيرة شعب البولالا أخوه السلطان بالجاشى BaLgashe لكن فترة حكمه لم تدم طويلا حيث أن موسى بن مارشو استطاع أن ينجح فى توليه عرش البولالا وأن يخلف عمه السلطان « بالجاشى » بالجاش .

لكن موسى بن مارشو لم ينعم بتوليه عرش البولالا إذ حدث انقسام بين أطراف الأسرة الحاكمة وقامت حرب داخلية بل حروب مدنية بين أطراف النزاع حيث تصدى جوراب بن بالجاشى Juarab ibn Balgshe للنزاع على العرش حيث رأى أحقيته يتولى عرش البلاد خلفا لوالده بدلا من ابن عمه موسى بن مارشو ، لكن فى نهاية الصراع فإن جراب بن بلجاشى نجح فى قتل موسى ومن ثم تودى به سلطانا على البلاد خلفا لوالده الذى كان قد تولى عرش البلاد خلفا لأبيه مارشو .

وعلى ذلك فقد استمر مسلسل الحكم فى فرع بلجاش حيث تولى بعده من وضع حد للصراع ابنه جراب Jurab والذى خلفه على عرش البلاد السلطان حسن بن جراب والذى خلفه على عرش البولالا أخوة الشقيق سلطان جل Jil بن جراب ، ثم جاء بعد ذلك أخيه السلطان محمد بن جراب والذى استمر فى توسيع نفوذ السلطنة فى الإتجاهات المختلفة حيث حارب العديد من القبائل لاسيما القبائل الوثنية التى كانت تقطن إلى الجنوب الغربى من بحيرة فترى حيث دام حكمه ثلاثة عشر عاما ثم خلفه على عرش البلاد السلطان حسن بن عبد الله الذى كان السلطان الحاكم لمنطقة فترى عندما قام بزيارتها بالمر Palmer فى القرن التاسع عشر الميلادى حيث كان لازال يحكم البلاد أو كما ذكرت ذلك الوثائق التى عثر عليها بالمر فى تلك المناطق وقد حكم هذا السلطان الذى لم تذكر الوثائنو تسلسل نسبه الأسرى من ناحية هل هو فرع من السلطان مارشو أو أخيه بالجاشي ، وقد دامت فترة حكمه سبعة عشر عاما قضاها فى توطين دعائم حكم أسرة البولالا على تلك المنطقة التى سيطروا عليها بعد أن أزاحوا نفوذ بنى كوكا عن تلك المنطقة .

ولكن البولالا لم يقتنعوا ببسط سيطرتهم على منطقة بحيرة فترى والمناطق المحيطة بها لكنهم اخذوا بعد ذلك فى الاتجاه للتوسع غربا حيث قام البولالا ، أو كما يطلق عليهم شعب الكانم شعب الكاوى Kay اتجاههم للغرب حيث تحركوا من الشرق فى اتجاه نجسيمى عاصمة كانم واستطاع البولالا الوصول غربا إلى منطقة الالى Aalali والتى كانت تقع على الشرق وبالقرب من نجيمى ، وقد اتخذ البولالا تلك المنطقة التى كانت تدخل فى حدود سلطنة الكانم منطقة استقرار لهم وأعادوا تنظيم أنفسهم حيث أنشأوا فى تلك المنطقة اولالى

Alali لفترة تزيد على ثلاثة وثلاثين عاما ووطد البولالا نفوذهم وأقاموا حكمهم وسلطانهم فى تلك المنطقة الجديدة التى أضيفت إلى ما كانوا يسيطرون عليه من أراض حول بحيرة فترى حيث أصبحوا فى صراع مع أبناء عمومتهم أو أخواتهم من ناحية الأم من أسرة سيفو الاسرة السيفية التى تحكم كانم فى حين كانت أم البولالا والسيفيين هى آسيا باجدرمارام Bagdarmaram .

ولقد ساعدت سيطرتهم على منطقة الالى على توسيع نفوذ البولالا حيث امتد فى اتجاه التبيو شمالا وسيطرت هذه القبائل على المنطقة الممتدة فى برقو Borka إلى مونيو Muniya بل أكثر بعدا فى اتجاه الشمال إلى منطقة اير Air بل انها امتدت من مونيو إلى نهر النيل وأصبح ذلك الخط يخضع لنفوذ البولالا (الكاوى) بل أن بالمر Palmer قد أشار فى الوثائق التى عثر عليها أن منطقة نفوذهم قد امتدت إلى جنوب طرابلس وقد يكون فى ذلك مبالغة شديدة ، ولقد أصبح البولالا بعد سيطرتهم على تلك المنطقة هم الذين يأمنون أمن الصحراء بل هم وسلطانها فى نقل الحركة التجارية .

وقد اتاحت سيطرة البولالا على منطقة الالى ومنطقة مانجا Manga أن أصبحوا بذلك الوضع السياسى الجديد يسيطرون على شمال كانم ، وقد تخلى مايات كانم برنو عن تلك المنطقة حيث تحركوا إلى مدينة واداى Wadi حيث استقر بها مايات كانم لفترة تقترب من عشرين عاما ثم اضطروا إلى تركها حيث زحف إليها البولالا وبسطوا نفوذهم عليها ومن ثم سارت فكرة البولالا فى ضم أراضى جديدة من أراضى كانم ، بل أكثر من ذلك فإن البولالا ظلوا يحاربون الكانمبو لفترة سبعة أيام متواصلة فى مدينة كوماجدوابيمو Koma-dugurobe .

ومن ثم اضطر ماى كانم برنوا إلى التحرك من تلك المدينة والإلتجاء إلى مدينة لادا Lada بالغرب فى داتس Dutsi ، ولكن بعد ذلك فإن البولالا اضطروا للرحيل إلى منطقة فترى نظرا لوجود بعض القلاقل الداخلية حيث اضطر سلطان البولالا إلى الإتجاه إلى مدينة « ماندرى Mangari » حيث استقر هناك فترة بالقرب من نجاجيمى Ngegimi ، ولقد كانت هذه فترة حكم الماى (السلطان) مادا جانتمى كونومالا Mada Gaanami Kanu-ma والذى كان زعيم البولالا الذى حارب سلطان كانم الماى دوناماوا بالمى Donama Da-balemy .

بل أكثر من ذلك فإن هناك روايات أخرى تذكر أن البولالا قدموا فى كولودان Kalu-wan إلى أراضى الالى حيث مكثوا هناك فى الالى فترة تقرب من ثلاثين عاما مع سلطانهم (ومن هنا فإن سلطان الكانمبو) سلطان كانم وسلطان العاصمة نجيمى قد ترك هذا الأقليم وأسس عاصمته فى واداى Waudi وكذلك فان البولالا من أجل توسيع رقعة دولتهم فأنهم

اضطروا للدخول فى صراع مع سلطان الكانم حيث هاجموا سلطان كانم فى وطنه بين وادای والعاصمة نجيمى ولكن السلطان على سلطان الكانم هاجم بدوره البولالا وذلك مما اضطر سلطان البولالا أن يهاجم وادای Waudi وهاجمها هجوما عنيفا إذ جرح فى ذلك الهجوم السلطان على بن دوناما سلطان كانم فى مدينة وادى .

وقد كان ذلك الانتصار فرصة طيبة لكى يتابع سلطان البولالا وقواته الهجوم غربا خلف سلطان كانم حيث تتبعوا وتعقبوا خطوات السلطان المنسحب غربا ودارت بينهما معارك حامية فى مدينة لادا Lada والتى استمرت سبعة أيام بلياليها ولكن سلطان كانم استطاع الانتصار العظيم عليهم مما اضطر سلطان البولالا أن يعود أدراجه وأن يعود إلي أراضي فتري حيث مكثوا هناك فترة ، واستقر أحد أتباعه ويدعى مانور ماناوا Manawa فى ارض الكانم ، ولقد كان لسلطان البولالا ستة أبناء تركهم عقبا له ، أحدهم استقر فى مدينة كوا Kowa وأصبح رئيس لذلك القطاع وهو أقليم فوجى Fugh ولوجالى Lugali والابن الثانى استقر فى دوبو Duba وأصبح رئيساً لأقليم دوبوما Dubuma والثالث استقر فى مالجاى -Malgay es ومقر رئاسته فى مالجاومى Malegayema ، واستقر الرابع فى أقليم ولجام ، وأصبحت مقر رئاسته فى مدينة ولجاما Walgama واستقر الخامس فى اقليم فيفودد Fifido وأصبحت عاصمة أقليمه مدينة فوفودوما Fifidoma ، واستقر السادس فى أقليم كونو واتخذ عاصمة ذلك الأقليم فى مدينةكونوما Kunama ، ولقد قدم هؤلاء جميعا ومعهم مائة جمل إلى سلطان برنو وطلبوا منه الاعتراف بهم حكاما على هذه الأقاليم التى يحكمونها ومن ثم قام السلطان بتسلم هذه المائة جمل منهم واقرهم رؤساء على هذه الأقاليم التى تخضع لحكمهم المباشر .

ولقد كان والد البولالا هو الماى كاروانى Kairawan .

وقد أورد بالمرقائمة بأصل ملوك البولالا الذين حكموا فى منطقة فترى طبقا للمخطوطات التى عثر عليها فى كتابه Sudanese Memoirs بدأها بالجد الأكبر لهذه الأسرة وهو محمد الكبير اليمانى ، ثم تسلسلت تلك الأسرة حتى وصلت إلى الاسم الرابع فى سلسلة ملوك هذه الأسرة وهو السلطان الرابع عبد الجليل وجل سيكوماس والتى تعنى زعيم المخيم ، والذى حكم فى الفترةمن (٧٦٧ / ٨١٤ هـ ـ ١٣٦٥ / ١٤١١ م) .

وقد كانت فترة ذلك الزعيم البولالاى فترة ظهور قوة البولالا على مسرح الأحداث السياسية كقوة عسكرية وسياسية فى عالم السودان الأوسط حيث بدأ نجمها يسطع فى سماء المنطقة وتكونت دولة واسعة الأرجاء وتدخل فى صراع طويل مع شعب الكانمبو وقد حكم ذلك الزعيم القوى ستة وأربعون عاما استطاع خلالها أن يوحد ويقوى نفوذ سلطنة البولالا على حساب أبناء عمومته أو أخوته من أمه شعب الكانم ثم خلفه على عرش

السلطنة البولالية السلطان محمد علوان والذى حكم لفترة تصل إلى ستة عشر عاما من عام (٨١٤ / ٨٢٣ هـ ـ ١٤١١ / ١٤٢٧ م) ثم خلفه على عرش البلاد السلطان محمد رشاد الذى حكم فترة تزيد قليلا على ثلاثة وعشرين عاما قضى معظمها فى توسيع رقعة السلطنة والقيام بالهجوم على القبائل الوثنية فى الجنوب الغربى ، وكذلك الدخول فى معارك حامية الوطيس مع سلطان الكانم وحكم فى الفترة من (٨٣٣ / ٨٥٤ هـ ـ ١٤٢٧ / ١٤٥٠ م) ثم جاء بعده السلطان محمد عال وقد قضى هذا على عرش السلطنة فترة قصيرة لم تزد عن ستة سنوات حيث حكم فى الفترة من (٨٥٤ / ٨٦١ هـ ـ ١٤٥٠ / ١٤٥٦ م) ثم تلاه فى قيادة دفة الأمور فى البلاد وتوليه مقاليد الحكم السلطان محمد بن عبد الله الذى تطلق عليه المصادر محمد عادل الكبير حيث حكم فترة تزيد على أحدى وعشرين عاما وقد قتل هذا السلطان سلطان كانم بن تاجى بن مريم عام (١٤٦١م) وقد كانت فترة حكمه فى الفترة من عام (٨٦١ / ٨٨٠ هـ ـ ١٤٥٦ / ١٤٧٥م).

وجاء بعده السلطان محمد بياض وقد حكم هذا فترة قصيرة لم تزد عن أربعة أعوام حيث حكم من عام (٨٨٠ / ٨٨٤ هـ ـ ١٤٧٥ / ١٤٧٩ م) وجاء بعده حاكم قوى استطاع أن يوحد دعائم سلطنة البولالا وأن تنعم البلاد فى عهده بالرخاء والنمو الاقتصادى حيث حكم فترة تزيد عن ثلاثين عاما قليلا وكانت فترة توليه السلطة عام (٨٨٤ هـ ـ ١٤٧٩ م) واستمر فى توليه الأمور حتى عام (٩١٤ هـ ـ ١٥٠٨ م) ذلك هو السلطان محمد عمر ، ثم آلت الأمور فى البلاد بعد محمد عمر هذا إلى السلطان محمد جبل الصفير حيث قد حرص سلاطين البولالا على أن يطلق على كل سلطان فيهم عبد الجليل وهو المؤسس القوى لهذه الأسرة المالكة التى ظلت تحكم منطقة فترى حتى القرن العشرين الميلادى ، وقد حكم هذا السلطان فترة تزيد عن ثلاث سنوات حيث حكم فى أعوام (٩١٤ / ٩١٧ هـ ـ ١٥٠٨ / ١٥١١ م) .

وآلت أمور السلطنة بعد ذلك إلى السلطان عبد الجليل الكبير الذى أطلق عليه الكبير تيمننا بجده الأكبر مؤسس هذه السلطنة ، وقد دامت فترة حكم هذا السلطان خمس سنوات فقط حيث حكم فى الفترة من (٩١٧ هـ ـ ١٥١١ م) واستمر فى حكم السلطنة حتى عام (٩٢٢ هـ ـ ١٥١٦ م) وتولى الحكم بعده السلطان محمد باجارى وقد حكم فترة خمسة عشر عاما هجرية بدأت من عام (٩٢٢ هـ ـ ١٥١٦ م) وحتى نهاية (٩٣٧ هـ ـ ١٥٣٠ م) ، وقد شهدت البلاد فى عهده فترة ضعف فى القوة العسكرية البولالاية حيث كانت قوة كانم قد بدأت فى الظهور حيث كانت قوة كانم قد استطاعت أن تدخل فى قتال مع البولالا حيث كان ذلك السلطان البولالاى معاصرا للسلطان الكانمى السلطان إدريس بن السلطان على غازى حيث استطاع هذا أن يفتح نجيمى عاصمة أجداده القديمة

كما شهدت فترة حكم هذا السلطان محمد بن ادريس بن على وقد تولى حكم هذه البلاد من بعده السلطان عبد الرحمن بن قداى وقد أسره السلطان على بن ادريس وقد حكم هذا فترة اثنين وثلاثين عاما تبدأ من عام (٩٣٧ / ٩٧٠ هـ ـ ١٥٣٠ / ١٥٦٢ م) وكان السلطان على بن ادريس سلطان برنو محاربا شجاعا وعظيما نجح فى بقاء كانم مرتبطة بحكم برنو ، وعرف السلطان على بحارق البولالا وذلك لأنه سار على سياسة والده السلطان إدريس وأخيه محمد فى قتال شعب البولالا وكسر شوكته ، ولذا فقد استطاع أن يهزم سلطان البولالا عبد الرحمن بن قداى وأن يأسر ثلاثة من أبناء السلطان عبد الرحمن حيث لم يأسر السلطان عبد الرحمن نفسه كما ذكرت بعض المصادر ، وأخذ أبناء عبد الرحمن هذا أسرى معه إلى العاصمة برنى عاصمة برنو بعد أن قاتلهم خمسة أيام متصلة واستطاع أن يشتت شمل البولالا حتى أن بعض أبناء عبد الرحمن الذين لم يقعوا فى الأسر قد فروا بأنفسهم مع شعب البولالا إلى الشمال ، وقد تزوج السلطان الكانمي البرنوى على بن أدريس هذا من اسرة البولالا الملكية ، لكن القوات البولالية استطاعت أن تقتل السلطان البرنوى هذا وهو يقاتل فى معركة ضدهم فى أرض الكانم بالقرب من العاصمة القديمة نجيمى .

ثم تولى ادارة دفة الأمور فى البلاد حول بحيرة فترى بعد أن أصبحت الأمور غير مستتبة فى أراضى الكانم السلطان محمد بن عبد الجليل كبير بنى عبد الله والذى حكم عاما واحداً حيث كانت فترة حكمه فى عام (٩٧٩ / ٩٨٠ هـ ـ ٢٥٧١ / ١٥٧٢ م) وقد حارب هذا السلطان السلطان البرنوى السلطان العظيم ادريس الوما ولكن السلطان هذا استطاع أن يهزم سلطان البولالا فى عدة مواقع داخل ارض كانم وأن يهزمه فى أحدى هذه المعارك مما اضطر إلى القيام بثورة ضده حيث تم عزله عن حكم البلاد ، وتولى السلطان محمد سورى حكم البلاد ، وقد كان محمد سورى عبد الجليل هذا شخصية قوية حيث حكم فترة تقدرها المصادر بعشرين عاما (٩٨٠ / ١٠٠١ هـ ـ ١٥٧٢ / ١٥٩٢ م) لكن السلطان السابق محمد عبد الجليل بن عبد الله استطاع أن يقود قوات عسكرية قوية ضده وأن يعزله عن سلطة البلاد وأن يتولى مقاليد الأمور لفترة ثانية ويبدو أن صلة النسب بين السلطان محمد عبد الجليل وبين السلطان القوى سلطان برنو السلطان ادريس الوما كانت من الأسباب القوية التى دفعت به لتولى مقاليد الأمور فى البلاد مرة ثانية فى عام (١٠٠١ / ١٠٤٣ هـ ـ ١٥٩٢ / ١٦٣٢ م) حيث تقدرها المصادر بأربعين سنةميلادية واثنين وأربعين سنة هجرية ، وقد شهدت فترة حكمه الثانية توقيع معاهدة سلام وحسن جوار واستقرار مع سلطان برنو حيث كانت صلة النسب والمصاهرة من الأسباب القوية التى ساعدت على استقرار الأمور بين البولالا وسلطان كانم برنو (سوف نذكر ذلك بالتفصيل عند الحديث عن باب الصراع بين البولالا وكانم) ، ثم آلت الأمور فى بلاد

البولالا بعد وفاة جراب الفيل عام ١٢٣٥هـ ١٨١٩م إلى ابنه موسى جراب الفيل الذى نجح فى توليه الحكم لكن أخيه جراب الصغير عارضه فى تولية الحكم مما جعل القتال ينشب بينهما لكن جراب الصغير هزم وهرب إلى كانم واستطاع أن يحضر قوات عسكرية تساعده وكتب إلى أخيه موسى بأنه سوف يحضر لكى يهاجمه وذهب إلى فترى وعسكر هناك فى جير Jir بالقرب من جاو Gao وعندما سمع موسى هذه الأخبار فأنه قدم إليه وتقابلا الاخوان للقتال فى ١٦ ذى الحجة ولكن جراب الصغير استطاع أن يحقق النصر وهرب موسى وبعض ابنائه لكن فى النهاية فأن موسى قتل بعد أن حكم أربعة وعشرين عاما ١٢٣٥ - ١٢٦٩هـ ١٨١٩ - ١٨٤٣م .

ثم تولى حكم البولالا جراب الصغير الذى حكم ثمانية وثلاثين عاما ١٢٦٠ - ١٢٩٨هـ ١٨٨١م ثم آلت الأمور بعد ذلك إلى ابنه حسن بن جراب الصغير الذى حكم سبعة سنوات ١٣٠٥هـ - ١٨٨٨م ودارت معركة حربية بينه وبين أخيه السلطان جادى Gudei وكان جادى قدم إلى مدينة أنوى Auni بالقرب من موتو Meto وعسكر هناك وجمع قوات عسكرية فى كوكا Kuka وهاجم فترى وعندما سمع أخيه حسن بهذه الأخبار فأنه كان فى مدينة نجاوز Ngusa وقدم السلطان للقتال يوم الإثنين السابع من شهر ذى القعدة وتقاتلا الفرسان ضد الفرسان حتى المساء وهزم جادى وعاد أدراجه إلى أونى Auni بعد أن فقد أربعين فارسا من رجاله وظل فى أونى لفترة تقترب من عام ومن ثم فقد قام بإحضار قوات عسكرية أخرى وكتب إلى أخيه حسن مرة أخرى وكرر أنه سوف يأتى له ومن ثم فقد قام جودى بمهاجمة جاو ودار قتال شديد يوم الأحد التاسع من صفر وانتصرت قوات جودى وفقد السلطان حسن خمسة وسبعين فارسا من قواته بالإضافة إلى ثلاثمائة جندى أخرين قد قتلوا وهزم السلطان حسن وعاد جودى Gudie إلى أونى ومن ثم فأنه لم يدر قتال بعد ذلك وقد وصلت أخبار تلك القوات والمعارك إلى السلطان يوسف سلطان واداى الذى أرسل رسالتين إلى السلطان جودى مع مبعوث خاصة له ومن ثم ذهب السلطان جودى إلى السلطان يوسف سلطان واداى وقدم إلى ابيش Abeshe ودخل الرسول قبل السلطان وبسؤال لكي يحضر جودى ، وقدم السلطان جودى أمام السلطان يوسف والذى أرسله إلى منزل جورما Jerma ومكث هناك سبع سنوات ، ومن ثم فقد مات حسن بوكوما Bekuma واستطاع أخيه ماناجيرا Mainajiri أن يستولى على مقاليد الحكم واستطاع أن يحكم ثلاث سنوات وقد قام السلطان يوسف وأدى بمهاجمته واستطاع أن يأسره ويأخذه معه أسيرا إلى أبيشى عاصمة واداى وسجنه هناك وأرسل السلطان يوسف إلى السلطان البولالاى جودى الذى سجن سبع سنوات وأخرجه من سجنه وأعلنه سلطان على البولالا فى فترى وقام هذا بالعودة إلى جاو وحيث حكم ثلاثة عشر عاما . لكن حدثت بعد

ذلك عدة خلافات بين السلطان الجديد جودى وبين أبناء السلطان موسى بن جراب القتيل حيث قدم إلى مدينة جورجورا Jurjwra مدينتهم وهاجم فترى ودارت معركة بينه وبينهم فى مكان يدعى مليمى Melme لكن السلطان جودى هزمهم ومن ثم عادوا هؤلاء إلى مدينتهم جورجورا وقام السلطان يوسف سلطان واداى بالقبض على زعيمم وهو أبو شيخو Abu shekhi وسجنه فى سجن أبيشى حتى مات هناك ومن ثم فقد قدم إبن الزعيم أبو شيخو وهو مانا جالى Mainajili من بوشى عاصمة واداى إلى فترى وقدم إلى مدينة مادوجو Madogo Mainajili وأحضر قوات عسكرية .

ثم تولى مقاليد الأمور فى سلطنة البولالا بعد وفاة محمد عبد الجليل كبير عبد الله وهو غير السلطان السابق الذى سبق ذكره وتبدو أن تكرار الأسماء من أسماء سلاطين البولالا قد اتخذ مظهرا من مظاهر اليمن والتشبه نظرا لقوة وصلابة وعظمة السلطان السابق ومن ثم فما هو الداعى أن يكون ذلك الإسم هو اسم السلطان السابق طبق الأصل وقد يكون ذلك السلطان هو ابن السلطان السابق وهو تسمى باسم والده أخلاصا وحياله وقد حكم هذا السلطان فترى فترة تزيد عن سبعة وإربعين عاما هجريا حيث حكم من عام (١٠٤٣هـ ١٦٣٢م ١٠٩٠هـ - ١٦٧٩م).

وقد خلفه فى حكم البولالا السلطان محمد شاو وقد حكم هذا سبعة وعشرين عاما بدأت من عام (١٠٩٠ - ١١١٩هـ / ١٦٧٩ - ١٧٠٧م) ثم خلفه السلطان إدريس بن محمد شاو وحكم من عام (١١١٩ - ١١٥٦هـ / ١٧٠٧- ١٧٤٣م) حيث كانت فترة حكمه تصل إلى ستة وثلاثين عاما ميلاديا ثم حكم بعده محمد بيكوما الكبير وحكم هذا (١١٥٦- ١١٩٥ هـ / ١٧٤٢- ١٧٨٠م) ثم حكم بعده جراب الفيل وقد حكم هذا اربعين عاما تبدأ من عام (١١٩٥- ١٣٢٥هـ / ١٧٨٠- ١٨١٩م).

ثم تولى حكم هؤلاء السلاطين للبلاد حيث حكم تلك السلطنة بعد جراب الفيل هذا الذى انتهت فترة حكمه من عام (١٢٣٥هـ - ١٨١٩ م) وحكم بعده خمسة سلاطين لم تعرف فترة حكمهم وأن كانت قائمة سلاطين البولالا تنتهى عند السلطان التاسع والعشرين فى سلسلة سلاطين البولالا التى تبدأ من عبد الجليل أو جبل سيكوماى وتنهى عند السلطان كرومه والذى انتهى حكمه فى عام (١٣٤١هـ / ١٩٢٢م) وبذلك يكون ذلك السلطان هو خاتمة المطاف لأسرة البولالا التى ظهرت كقوة عسكرية وسياسية ذات نفوذ سياسى وعسكرى واسع فى ستة قرون متواصلة حيث كانت بداية قوتها فى عام (٧٦٧هـ / ١٣٦٥م) ونهايتها فى عام (١٣٤١هـ - ١٩٢٢م).

وهكذا يتضح أن أسرة البولالا هى أطول أسرة تحكم تلك المنطقة الواقعة حول بحيرة فترى وجنوب شرق بحيرة تشاد حول كانم حيث كان ذلك الإستقرار السياسى دليل قوى

وحيوى على قوة هؤلاء السلاطين فى قيادة شعبهم وتوجيه أموره السياسية والمحافظة على وضعه السياسى فى تلك المنطقة الحساسة من بلاد السودان حيث تقع فى منطقة احتكاك سكانى بين السودان الشرقى والغربى والأوسط .

وهاجم السلطان جودى وقد دارت فى أرض منطقة دابالتى Dabalthe وقد جرح السلطان جودى فى هذه المعركة لكن المهاجم مانا جالى قتل فى تلك المعركة وقد ظل السلطان جودى بحكم البلاد حتى هاجمته قوات اسيل وهاجمته القوات الفرنسية حيث قتل فى مولابيس Mulabis وحكم بعده السلطان حسن والذى حكم أربعة وعشرين عاما .

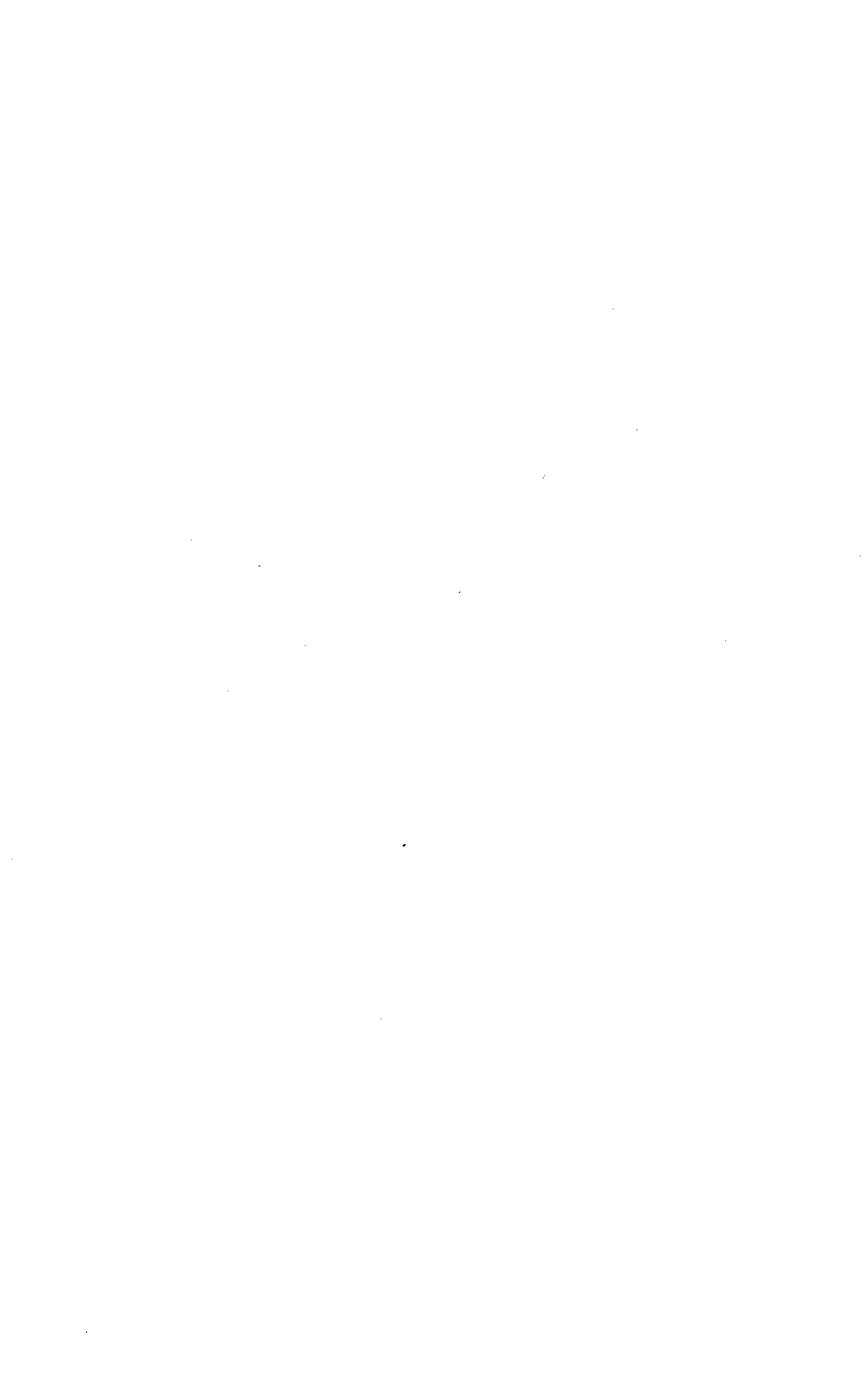
وكان آخر سلاطينهم السلطان كورما Chiroma ابن السلطان حسن والذى حكم وانتهى حكمه عام ١٩٢٢ وبذلك طويت صفحة من صفحات التاريخ الإسلامى فى سلطنة البولالا منذ أن ظهر زعيم البلاد السلطان عبد الجليل فى القرن الرابع عشر حيث توارثت أسرته من بعده عرش منطقة فترى حتى القرن العشرين وهو يعتبر أطول تاريخ أسرة حاكمة فى القارة الأفريقية بل فى منطقة السودان الأوسط .

وهكذا دارت الأحداث التاريخية والسياسية فى تلك المنطقة الواقعة جنوب غرب الأراضى المصرية وشمال غرب السودان الشرقى حيث شهدت تلك المنطقة أحداثا سياسية وتاريخية وعسكرية فى تلك المنطقة وما تلاها من صراعات دموية بين البولالا سكان فترى وبين أبناء عمومتهم سكان كانم ، وكذلك ما شهدته المنطقة من أحداث تاريخية مع سلطنة واداى حيث أن واداى استغلت فترة الضعف التى انتابت سلاطين البولالا وبدأت تتدخل فى شئونها الداخلية بل تفرض نفوذها السياسى على سلاطين البولالا فتقوم بعزل السلطان الذى لا ترضى عليه وتعين السلطان الذى ترضى عنه واداى .

وهكذا كان عام (١٣٤١هـ - ١٩٢٢م) هو نهاية عصر الحكم البولالالى فى تلك المنطقة بعد أن وضعت القوات الفرنسية حداً لهذا الحكم الذى استغرق أكثر من ستة قرون فى سلالة أسرية واحدة وهى سلالة النبلاء من البولالا حكام فترى .

***

البـــاب الثـــالـــث
الصراع ضد الكانم



لقد كان ظهور السلطان البولالى عبد الجليل أو جبل سيكومانى والذى كان يعنى هذا اللقب عندهم سيد المعسكر على مسرح الأحداث السياسية فى منطقة بحيرة فترى فى القرن الرابع عشر الميلادى بمثل حجر الزاوية فى حلبة الصراع البولالاى الكانمى حيث استطاع ذلك السلطان أن يتخذ بعدا جديدا فى الحياة العسكرية البولالاية حيث كان أول سلطان يحقق الإنتصارات الواسعة على ساحة كانم ويستطيع أن يهزم القوات الكانمية .

ولكن ليس معنى ظهور السلطان عبد الجليل بهذه الصورة القوية أو دخوله فى صراع مع ابناء عمومته حكام كانم أنه أول سلطان بولالاى يقوم بهذا الهجوم ، لكن مطامع البولالا فى أراضى كانم قد بدأت محاولاتها منذ القرن الثانى عشر الميلادى بل أنها اشتدت أكثر مع بداية القرن الثالث عشر الميلادى ومن ذلك فأننا نجد بالمر يذكر أنه مع أزدياد مطامع البولالا وظهور خطرهم على اسرة الماغومين فأننا نجد السلطان الكانمى دونما دبالمى حيث كان ذلك السلطان القوى (١٢٢١ - ١٢٥٩م) والذى بلغت كانم فى عهده من الشهرة مبلغا عظيما فى بلاد الشرق والغرب ووسع ذلك السلطان حدود دولته والتى بدأت تدخل مرحلة الإنهيار والضعف بعد موت ذلك السلطان حيث ازداد خطر شعب البولالا وعلى ذلك فقد قام ذلك السلطان بنفسه وخروجه على جيش قوات كانم لملاقاة البولالا بل حد من قوتهم فى الأماكن التى استولوا عليها فى شرق كانم بحيث استطاع أن يقتل منهم نحو ثلاثة الاف شخص كما ورد فى بعض المخطوطات بل أن سلطان البولالا إبراهيم جانا لم يستطيع أن يقاوم ذلك الهجوم الباغث الذى قام به السلطان الكانمى دونما باليمى مما اضطره إلى الفرار والإختباء فى مستنقعات بحيرة فترى .

وتنتسب مخطوطات برنو العربية التى عثر عليها بارث وبالمر أن السلطان الكانمى دونما دباليمى قد قاد حرباً طاحنة ضد البولالا استغرقت كما تقول تلك المخطوطات سبع سنوات وسبع أشهر وسبعة أيام ، كما أن تلك المخطوطات البرنوية قد اضافت قائلة أن الزعيم البولالى الذى اتى لمحاربة السلطان دونما خلفا للأمير البولالاى إبراهيم جاما وهو الأمير جابو بن لافراد وعلى هذا فأن البولالا خلال القرن الثالث عشر لم يستطيعوا أن يحرزوا أية انتصارات عسكرية على الكانمبو أو الماغومين سكان كانم وقيادتهم السياسية حتى عام ١٢٥٩ عند وفاة السلطان دونما دباليمى ولكن عندما ضعف مايات كانم بعد عهد دوناما دباليمى فإن قوة البولالا كانت آخذة فى الزيادة والإتساع فى حين كانت قوة كانم قد بدأت تأخذ من الضعف والإنهيار العسكرى ، وذلك بسبب التنافس بين أفراد الأسرة الكانمية وذلك على تولى مقاليد الحكم فضلا عن احاطة الأعداء بالبلاد من الشرق والجنوب حيث شعب الصو الوثنى والذين كانوا يتربصون بكانم لحظة الضعف للتخلص من نفوذها أو القضاء عليها ،

ويذكر أن قبائل البولالا قد زحفت على كانم والذين كما يذكر الدكتور حسن محمود فى كتابه الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا نقلا عن هوجين فى كتابه الإمارات الإسلامية فى شمال نيجيريا أن البولالا كانوا من أهل البلاد الأصليين والذين ثاروا على استبداد الأسرة الكانمية (السيفية) الحاكمة وأعلنت الحرب عليهم واقتحمت عاصمتهم نجيمى وطردت الملوك من سلاطين كانم ففروا إلى غرب بحيرة تشاد .

ولقد كانت من الأسباب القوية التى مهدت الطريق لتحقيق الإنتصارات الباهرة على شعب الكانمبو للبولالا ذلك الصراع الذى حدث بين شعب الصو وسكان كانم حيث خرجت كانم من تلك الحروب منهوكة القوى مما أتاح الفرصة أمام البولالا للإنتصار على شعب الكانم وحكامه ذلك لأنه فى جنوب كانم كان يسكن شعب الصو الوثنى الذى عمل على التخلص من سيطرة الكانم وحاربهم وكان سببا فى أن يلقى أربعة من سلاطين كانم مصرعهم فى ميدان القتال وقد كان شعب الصو هذا كما تقول بعض الآراء قوم قدموا من الشرق من شواطىء النيل حيث لم يجد هؤلاء العمالقة أدنى صعوبة فى اخضاع الأهالى الأقزام الذين وجدوهم على الشواطىء الشرقية لبحيرة تشاد وكذلك فى أقاليم المراعى شمال تشاد لكن شعب الصو هذا قد هزم من القوات الشمالية البيضاء الزاحفة إلى بلاد السودان وكان شعب الصو يشكلون وحدة متماسكة وكونوا لهم مملكة قديمة وكان لهم نظامهم الإجتماعى والسياسى وأنهم بسطوا نفوذهم على بعض القبائل السودانية وأن اسلافهم قد أنشأوا القرى وكانت لهم حضارتهم .

ولقد كان أول سلطان كانمى يلقى حتفه فى ميدان القتال ضد شعب الصو هو السلطان سيلما بن عبد الله والذى حكم فى الفترة من (٧٤٧- ٧٥٠هـ / ١٣٤٦ ٣٤٩م) وخلفه فى الحكم أخيه السلطان كوى بن عبد الله الذى حكم سنة واحدة (٧٥١هـ / ١٣٥٠م) حيث لقى مصرعه فى ميدان القتال وهو يدفع خطر الصو جنوبا عند حدود سلطنته ، ثم آلت أمور سلطنة الكانم إلى أخيه كوى الكبير الذى حكم هو الآخر سنة واحدة عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م ولقى مصرعه أيضا فى نفس المكان الذى قتل فيه أخيه على يد شعب الصو.

وتولى السلطنة وقيادة القوات من بعده أخيه محمد بن عبد الله الذى لم تطل مدة حكمه هو الآخر عن سنة واحدة (٧٥٣هـ / ١٣٥٢م) فقد هزم ولقى نفس المصير الذى لقيه أخويه من قبل .

ولقد كانت كل هذه الهزائم المتكررة لقوات كانم من شعب الصو فى فترة زمنية قصيرة من الأسباب القوية التى مهدت الطريق لرحيل الأسرة الحاكمة إلى برنو ثم تولى أمور البلاد بعد ذلك السلطان إدريس بن إبراهيم (٧٥٤ - ٧٧٨هـ / ١٣٥٣- ١٣٧٦م)

والذى استطاع أن يهزم شعب الصو ولكنه رغم الإنتصار على شعب الصو إلا أنه واجه عدوا آخر قادم من الشرق تمثل فى شعب وقبائل البولالا حيث كان ذلك الشعب السبب الرئيسى فى رحيل الأسرة نهائيا من كانم إلى برنو .

وأنه خلال الفترة من عام (١٣٦٦- ١٣٨٦م) أى خلال العشرين عاما تولى عرش الكانم ستة سلاطين كانوا جميعهم معاصرين لسلطان البولالا الزعيم القوى عبد الجليل بن سيكوما والذى حكم (٧٦٧ - ٨١٤ هـ/ ١٣٦٥- ١٤١١م) والذى قاد قواته ضد الكانم فهب سلطان الكانم إدريس بن إبراهيم وتطلق عليه بعض المصادر إدريس بن حفظة نسبه إلى أمه ، لملاقاة العدو البولالالى الزاحف من شرق بحيرة تشاد حيث موطنهم حول بحيرة فترى الصغيرة وكان إدريس بن إبراهيم من سلاطين الكانم الأقوياء الأشداء والمحارب الفذ الذين حكموا كانم حيث قد سبق له أن تغلب على شعب الصو الوثنى والذى قتل أربعة سلاطين من قبيلة ، واستطاع إبراهيم أن يقاتل البولالا لكنه لم يستطع أن يحقق أى انتصار حاسم عليهم فى هذه المعركة ويبدو أنه قد قتل فى ميدان المعركة ومن هنا فقد وقع عبئ المواجهة الحاسمة للبولالا على عاتق شقيق إدريس ، حيث خلفه فى حكم الكانم فى ظل ظروف الحــرب السلطــان داود تكالى بن إدريس (٧٧٩- ٧٨٨ هـ / ١٣٧٧- ١٣٨٦ م) حيث حكم هذا السلطان تسعة أعوم ولكنه لم يستطع أن يوقف زحف البولالا على بلاده بل أن الأمر انتهى بدخول السلطان البولالى عبد الجليلى سلطان البولالا العاصمة نجيمى وذلك في عام (٧٨٢ هـ - ١٣٨٠ م) حيث قتل السلطان داود واستطاع البولالا السيطرة على عاصمة الكانم واحتلالها .

لكن بعد مقتل السلطان داود فإن ابنه عثمان بن داود بن إدريس والذى حكم لفترة قصيرة لم تزد عن ثلاث سنوات (٧٨٩- ٧٩٢هـ / ١٣٨٧- ١٣٩٠م) استطاع أن ينجح فى تحقيق بعض الإنتصارات على البولالا فى أن يوقف زحفهم إلى أراضى جديدة بل أنه خاض معهم معركة حامية الوطيسى داخل العاصمة نجيمى استطاع بعدها أن يخلص العاصمة من أيديهم وأن يطردهم منها وأن يعود هو وأسرته وبقية شعبه إلى العاصمة بعد هزيمة قوات عبد الجليل ، مما زاد فى ألتفاف قبائل الكانم حوله .

وعندما توفى عثمان بن داود فإن حكم البلاد قد آل إلى عمه عثمان بن إدريس والذى لم تزد فترة حكمه عن عامين (٧٩٣- ٧٩٤هـ / ١٣٩١- ١٣٩٢م حيث أنه واصل خلال تلك الفترة الزمنية القصيرة الجهاد ضد قبائل البولالا ومحاولة إيقاف زحفهم ضد العاصمة والأراضى الشرقية التى احتلوها فى البلاد لكن زحف البولالا كان شديدا حيث استشهد فى ميدان المعركة ، حيث تولى حكم الكانم بعد مقتله السلطان أبو بكر دليا توين داود ابن إدريس حيث لم يدم حكمه إلا تسعة أشهر (٧٩٥هـ - ١٣٩٢م) حيث قتل

على يد قوات البولالا بقيادة عبد الجليل وتولى حكم البلاد عمه السلطان عمر بن عثمان بن إدريس حيث كان السلطان عمر بن عثمان بن إدريس والذى حكم (٧٩٦- ٨٠٠هـ ١٣٩٣- ١٣٩٧م) وهو آخر سلاطين أسرة سيف فى كانم فقد اضطر إلى الإلتجاء إلى الأراضى التى تقع إلى الجنوب الغربى من بحيرة تشاد حيث أرض البرنو ومن ثم رحل عن بلاده وبلاد أجداده ، وذلك لأن السلطان عمر بن عثمان ، كان قد رأى أنه لا قبل له بمواجهة البولالا فإنه جمع أهل الرأى والمشورة فى بلاده ومنهم الإمام الأكبر للبلاد حيث اجمعوا الرأى على ضرورة مغادرة جميع أراضى الكانم بعد أن كانوا قد تركوا العاصمة نجيمى وصاروا ينتقلون من مكان إلى آخر ، حيث أنه لم يعد يطيب لهم المقام فى ذلك المكان فجمع السلطان عمر بن عثمان بن إدريس ما تبقى من قواته العسكرية وحاشيته وانتقل إلى مدينة كاجا Kaga حيث هى فى الأراضى الجنوبية التى لجأ إليها السلطان عمر بن عثمان بن إدريس وكانت هذه هى نهاية المطاف له وشعبه بعد طرده من كانم وعاصمة بلاده وهكذا أجبر البولالا أسرة سيف على نقل مقر الملك إلى برنو جنوب غرب بحيرة تشاد وقد أقام البولالا دولتهم بعد سيطرتهم على بلاد كانم .

وتذكر بعض المصادر أن السلطان عبد الجليل كان مأسورا فى كانم مع بعض أفراد أسرته من البولالا لدى سلاطين كانم وكان قد هرب من كانم عندما اشتد الصراع بين أفراد الأسرة المالكة على تولى مقاليد الحكم فى البلاد وقد وجد الفرصة مواتية للهروب من الأسر الذى وقع فيه حيث وجد طريقة إلى قومه حول بحيرة فترى ، وقد اشتدت وطأة المايات سلاطين الكانم بعد هروب عبد الجليل على شعب البولالا وقد يكون ذلك من الأسباب القوية التى دفعت البولالا إلى تجمع قواتهم وحشد قدراتهم العسكرية ، وكان عبد الجليل قد اختفى بين قبائل كوكا فترة من الزمن ولكنه بعد فترة عاد إلى العاصمة ماسيو Masiu عاصمة البولالا ، حيث جمع شعبه حوله وأخذ يغير على أملاك المايات حكام كانم ويوسع أملاك بلاده وتذكر بعض المخطوطات أن عبد الجليل هذا كان مشهورا بالفروسية ومشهوداً له بالقوة والشجاعة فضلا عن المغامرة وخاض كثيرا من الحروب وظفر بإنتصارات كثيرة.

وكان ذلك الإختفاء فى كوكا من الأسباب القوية التى جعلته يتحالف مع رعايا هذه المنطقة ضد سلطانهم على نديتنا ، حيث كانت منطقة الكوكا تقع فى منطقة بحيرة فترى، بالإضافة إلى أن ذلك السلطان كان يعرف باسم على الكوكى وكانت عاصمة أقليم الكوكا وهى مدينة ياو أو جاو Gao أو Yau وقد كان تحالف عبد الجليل مع سكان ذلك الإقليم من الأسباب القوية للقضاء على علىّ الكوكى ومن ثم بدأ يلتف السكان حوله وأخذ عدته للسيطرة على العاصمة ماسيو ثم بعد ذلك استطاع القضاء على دولته وفكر عبد الجليل فى نقل عاصمة أجداده ماسيو إلى عاصمة على الكوكى وهى مدينة ياو أو جاو قرب بحيرة

فترى ومنذ ذلك الوقت اشتد ضغط البولالا على سكان كانم وبطشهم بأبناء عمومتهم من الماغومين وذلك ردا على الأعمال الإنتقامية التى قام بها سكان الكانم ضد البولالا .

وقد اصطدم السلطان عبد الجليل فى صراعه بالماى الكانمى إدريس بن إبراهيم بحيث لم يقو السلطان إدريس على مقاومة القوات البولالاية الزاحفة بقيادة عبد الجليل ومن ثم فقد اضطر إلى ترك عاصمته نجيمى والهروب منها والإلتجاء إلى مدينة كيريك ناجو krik nago وذلك لكى يعيش من جيله وولا wala حيث هى تقطن إلى الجنوب من كانم وهى فرع من قبيلة وتأكير والتى يذكر عنها أنها الأصل فى تأسيس دول امارات الهوسا السبع.

وكان العرب من بنى جذام وغيرهم من القبائل العربية الأخرى يساعدون البولالا فى حربهم ضد سكان كانم وسلاطينها ولا يعرف السبب فى ذلك هل لأن البولالا أقرب إلى العرب عرقيا وجنسيا أم لأن البولالايون منحوا لهم تسهيلات فى الإقامة حول بحيرة فترى ووعودهم بكسب كل ما غنموه من هذه الحروب ضد الكانميون ، بل أن تلك المساعدة العربية سهلت للبولالا بقيادة عبد الجليل أن تقتل أربعة من مايات كانم برنو فى كفاحه معهم لأجل توسيع حدود دولته والتخلص من كل آثار السيطرة التى قد يفرضها سلاطين كانم على شعب البولالا وهؤلاء المايات الذين تم قتلهم هم الماى داود تكالى بن إبراهيم (١٣٧٦ - ١٣٨٦ م) وعثمان بن داود ١٣٨٦م ، ومنافسة عثمان ابن إدريس (١٣٨٦م) ، ثم أبو بكر بن داود .

وهكذا نجح البولالا فى حروبهم ضد مايات كانم برنو بفضل تلك المساعدة التى قدمها لهم عرب جذام والعرب الذين قدموا من الشمال والشرق و عرب جذام فرع من القبائل القحطانية من جنوب شبه الجزيرة العربية وقد انتقلت اعداد كبيرة منهم إلى مصر حيث استقرت فى شرق الدلتا فيما يعرف باسم الحوف ، ومن مجموعة جذام طائفة تعرف باسم بنى عقبة انضمت إلى العرب الهلالية فى غزواتهم لفزان حوال عام ١٠٥٠ ، ثم بدأت جذام وكذلك جهينة تتجه نحو بلاد السودان منذ عام ١٢٠٠م ومن ثم كانت مساعدتهم للبولالا فى القرن الرابع عشر الميلادى بعد أن وطدوا نفوذهم فى تلك المنطقة ومن هنا تحالفوا مع البولالا وحتى عهد الماى الثلاثين فى سلسلة سلاطين كانم برنو والتى بدأت بإعلان السلطان الأول فى كانم السلطان أوميجلمى إسلامه وهو السلطان الثانى عشر فى سلسلة ملوكهم فى عام (٤٧٩هـ - ١٠٨٥ م/ ٤٩٠ هـ - ١٠٩٧م) فإن الأسرة السيفية لم تستطيع بعد أن وضحت أمامها صورة الإنتصارات التى يحرزها البولالا استحالة البقاء فى العاصمة نجيمى ، لذلك نجد السلطان عمر بن عثمان بن إدريس يفر بعد أن أخذ رأى مستشاريه من العلماء وبحث معهم فيما ينبغى عمله إزاء هذا الخطر المحدق فنصحوه

بالهجرة نهائيا من كل أراضى كانم لأنهم شعروا أن عهد بقائهم فى العاصمة نجيمى قد انتهى ومن هنا استحالت معيشتهم فى كانم بأسرها .

وكان على السلطان عمر بن عثمان بن إدريس أن يتوجه إلى اقليم برنو غربى بحيرة تشاد واستوطن فى مدينة كاجا kaga وكانت تلك المدينة تعتبر دائما ملجأ لكل هارب أو مهزوم أو مطرود من امراء ومايات الأسرة السيفية خلال الحروب والفتن ، وذلك بعد أن وجد هؤلاء القوم المطرودين من كانم أنه من الصعوبة العيش بين أنهار كوتوكو kotoko ونهر لوجون Logon وذلك لأن بعض قبائل الكانمبو kanabo كانت تنتقل فى الأراضى الخصبة من نهر يوا yo على الجانب الغربى للبحيرة فى الإقليم الذى عرف فيما بعد باسم برنو ومن ثم دخلوا مرة ثانية فى صراع مع شعب الصو الوثنى So استمر فترة طويلة ، حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى ، لم تتحرك هذه القبائل وفرضت استقرارها وسيطرتها على سكان البرنو بعد أن قدمت بأعداد كبيرة من شعب الكانمبو خلف الأسرة الحاكمة ، حيث عاشوا شعبا زراعيا وكانت حياتهم أكثر استقراراً عما كانوا عليه من قبل فى أرض كانم حيث العدوان الدائم من شعب الصو وشعب البولالا ، وبمرور الزمن أصبحت برنو دولة قوية حيث غيرت الأحوال السياسية فى تلك المنطقة حيث استطاع السلطان عمر فى مدينة كاجا أن يستعيد قواته وأن يستقر ولكنه لم يستطيع أن يعود إلى كانم بسبب حكم البولالا الذين شملت سلطنتهم بالإضافة إلى الأراضى الواقعة حول بحيرة فترى fitri أراضى كانم كلها وصاروا قوة جديدة مسيطرة فى السودان الأوسط بحيث أصبح من الصعب على أية قوة أخرى أن تتغلب عليهم فى ظل ظروف ضعف حكام برنو الجدد .

ومنذ عهد السلطان عبد الجليل البولالاى والماى عمر بن عثمان بن إدريس ، بدأ حكم البولالا الشامل للكانم ، وتبدأ بعد ذلك فترة كفاح ملوك برنو المطرودين من كانم للعمل على تدعيم عروشهم فى المنطقة الجديدة والعمل من أجل استعادة أرض أجدادهم من أيدى البولالا .

وهكذا نرى كيف طردت أسرة سيف أو الأسرة السيفية الحاكمة من كانم بعد أن طردت قبلا من العاصمة نجيمى فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، وذلك بعد سلسلة من الكفاح الطويل الذى أدى إلى مقتل أربعة مايات من سلاطين كانم على يد سلطان البولالا عبد الجليل ، ومن ثم بدأ الصراع فى منطقة السودان الأوسط وبالتحديد حول بحيرة تشاد يأخذ بعدا جديد إذ كان على سكان البرنو أن يبدأوا الصراع من جديد ضد أبناء عمومتهم من البولالا لكى يطردونهم من الكانم ، وبهذا ينتهى عصر سيادة كانم على أقليم البرنو وبدأ عصر سيادة البرنو ، وفى ذلك يقول أحمد بن فرطو مؤرخ بلاط برنو فى عهد الماى إدريس الوما أو مؤلف كتاب الماى إدريس الوما لقد أراد الله أن تحتل كانم قبيلة البولالا

سكان فترى وسكان واداى واستحال طردهم منها حتى عهد السلطان إدريس بن على بن أحمد المتوفى عام ١٥٢٦م .

شعب البرنو والصراع مع البولالا :

منذ أن طرد الماى (سلطان) عمر بن عثمان بن إدريس من كانم ومن العاصمة نجيمى على يد عبد الجليل البولالى فقد بدأت أهمية البرنو كأقليم سياسى يظهر وإن كان السيفيون المهاجرون من كانم قد تعرضوا للكثير من المحن فى فجر هذه الفترة التى تبدأ من أواخر القرن الرابع عشر الميلادى نتيجة صراعهم المستمر لاستعادة أقليم كانم من البولالا ونتيجة للفتن والدسائس والإنقسامات الداخلية بين أبناء الأسرة الحاكمة صراعا حول العرش

فضلا عن المنافسات الدموية بينهم وبين الطبقة الإقطاعية الارستقراطية من كبار الحكام والاسر وقد تمتع شعب الكانمبو فى موطنه الجديد بالاستقلال بعيدا عن سيطرة البولالا وقد نجح شعب الكانمبو فى دفع قبائل الصو إلى الجنوب واختلط الشعب الزاحف من الشمال مع بقايا السكان البدائيين ، وقد قام هذا الشعب الذى وصل إلى موطنه الجديد مع السلطان عمر بن عثمان بن إدريس ، لكن السلطان عمر بن إدريس قد توفى بعد استقراره فى وطنه الجديد بسبع سنوات حيث كانت مغادرته لكانم فى عام ١٣٩١م ومماته عام ١٣٩٧م ثم تولى خلفه الماى سعيد والذى حكم سنة واحدة (٨٠١هـ / ١٣٩٨م) ولم تطلق عليه الوثائق التى عثر عليها بارث أثناء رحلته الى برنو لقب سلطان أسوه بالسلاطين السابقين من الأسرة السيفية ولكن لقب بلقب ملك ، وفى عهده تخلص البولالا من كل أثر للأسرة السابقة فى الكانم واستمروا فى مطاردة الأسرة السيفية فى مقرها الجديد ، بل أنهم استطاعوا قتل الملك سعيد الذى لم يدم حكمه سوى سنة واحدة .

وتولى الحكم بعده السلطان قاضى افونوين إدريس (٨٠٢هـ / ١٣٣٩ - ١٤٠٠م) والذى لم يطل حكمه عن عام واحد قاتل فيه البولالا أكثر من مرة لكنه سقط قتيلا فى ميدان المعركة وهو يقاتل أعدائه وأعداء شعبه وقد كان مصيرة هو نفس مصير سابقيه من الأسرة السيفية ومن هنا آلت الأمور بعد ذلك إلى السلطان برى بن إدريس الذى حكم فترة تقدرها المصادر بثلاثة وثلاثين عاما (٨٠٣ - ٨٣٥هـ / ١٤٠٠ - ١٤٣٢م) ، لم يحدث طوال هذه الفترة اى اشتباك أو مناوشات مع البولالا ، ويبدوا أنهم قد كفوا عن مهاجمة الأسرة المهاجرة إلى وطنها الجديد .

وتذكر الروايات التاريخية أن سلاطين البولالا سلاطين فترى قد فرضوا سيطرتهم على أرض كانم وأنهم حكموا تلك الأقاليم فتره تقدرها تلك المصادر بستة وسبعين عاما وهم

ينعمون بالهدوء فى تلك الأراضى بعد ضمها لفترى وقد حكم السلطان داود نجالمى خمسة وعشرين عاما ، ثم بعده حكم السلطان شو اثنين وثلاثين عاما ثم جاء بعده ابنه وارى Yari ابن شو والذى حكم تسعة عشر عاما وبذلك يكون حكم هؤلاء الثلاثة ستة وسبعين عاما ، بالإضافة إلى أن روايات أخرى تذكر أن البولالا استولوا على السلطة فى كانم بعد ضمها لفترى من السلطان داود نجاليمى وأنها استمرت تحت سيطرتهم لفترة تقدر بمائة عام.

كذلك فإن الهجوم البولالى إن كان قد توقف لفترة زمنية معينة إلا أن هجوم عرب جذام لم يتوقف حيث نجد السلطان عثمان بن إدريس يقوم بإرسال رسالة إلى السلطان المملوكى المصرى الظاهر برقوق يشكو فيها من اعتداءات أولئك العربان ويذكر فى هذه الرسالة أنهم أخذوا جماعة من أقاربه وباعوهم فى الأقطار ، ذلك لأنه من المعروف أن عرب برنو كانوا يساعدون البولالا فى تحركهم العسكرى ضد الكانمبو بل أكثر من ذلك فإن بالمر يذكر أن هناك صلات عرقية وسلالية وصلة دم بين البولالا وبين العرب المعروفين باسم التنجور Tunjur ومع الإنقسامات الداخلية فى برنو بين أفراد الأسرة الحاكمة وعدم الإستقرار السياسى وحودات القتل فى الحروب العائلية واستمرار الصراع العائلى إلا أن ذلك لم يمنع الخطر البولالى الذى كان جاسما على صدر كانم أن يزداد بل يتحرش بالسلاطين فى مواطنهم الجديدة فى برنو بل أن قوة البولالا كانت لا تزال قوة يخشى بأسها كما أن مايات برنو كانوا لا يزالون يواصلون كفاحهم لقمع الخطر البولالى المتزايد والضرب على أيدى سلاطينهم وقواتهم ومحاولة استعادة الشط الشرقى من امبراطورية البرنو (الكانم).

ونشاهد أن الأحداث الدموية بين البولالا والكانمبو قد ظهرت على مسرح الأحداث بصورة قوية فى عهد السلطان البرنوى جهادى بن أمالو الذى حكم خمس سنوات (٨٦١- ٨٦٥هـ ، ١٤٥٦ - ١٤٦١م) وقد هزم ذلك السلطان فى معركة عسكرية كان يدافع فيها عن أرض البرنو من الصراع ضد هجوم محمد بن عبد الله ملك البولالا مما يدل على أن البولالا قد بدوا مرحلة جديدة فى الصراع ضد الأسرة الحاكمة فى برنو بعد هدوء استمر نحو ستين عاما ويبدو أن الذى دفع البولالا وسلطانهم محمد بن عبد الله للقيام بالهجوم على أرض برنو ، أنه وصلت لديهم معلومات تفيد أن السلطان البرنوى جهادى بن أمالو كان يعد العدة لكى يقوم بعمل عسكرى ضد وجودهم فى كانم إذ أنه عقد عدة اتفاقيات مع عرب واحة توات لكى يستعين بهم فى صراعهم ضد البولالا (ويذكر السعدى فى كتابه تاريخ السودان أن السبب فى تسمية واحة توات بأسمها أن مرضا أصاب بعض رجاله فى ذلك الموضع وكان ذلك المرض يسمى عندهم توات ، فأنقطع عن الموكب من اصابهم ذلك المرض واستوطنوها فعرفت باسم توات ، وكانت تقع إلى الشمال

الغربى من سلطنة برنو وكان سلاطين برنو يطلبون مساعدة أهلها عند الشدة نظرا لأهمية موقعها على طرق القوافل.

وتذكر الروايات أن السلطان جهادى امالو (اسم أم الماى وهى من نبيلات الطوارق) قد قتل فى تلك الحرب وهو يقاتل البولالا حيث كان مقتله فى عام ٨٦٥هـ / ١٤٦١م وذلك أمام حاكم كانم البولالا سالما أو محمد بن عبد الله الكبير (١٤٤٧ - ١٤٦٥م) وقد اشتهر ذلك الحاكم البولالى هذا فى كانم بلقب كانم ما Kanem ma أى سيد كانم وكان نفوذ ذلك الحاكم البولالاى القوى قد بدأ يأخذ بعدا جديدا حيث أن نفوذ البولالا فى القرن الخامس عشر الميلادى ، التاسع الهجرى قد بدأ يتسع على حساب الدول المعاصرة حيث أشار الحسن لوزان (لبو الأفريقى) أن نفوذ البولالا قد امتد فى عهد السلطان محمد بن عبد الله الكبير غربا إلى مشارف مدينة تميكنو حيث أن نفوذه وغزواته قد امتدت إلى تلك الأقاليم .

تغير ميزان القوى لصالح برنو :

بدأت سلطنة برنو تدخل مرحلة جديدة من الإزدهار فى عهد السلطان على غازى الذى تولى الحكم فى الفترة (٨٧٧ - ٩٠٩هـ ، ١٤٧٢ - ١٥٠٤م) حيث حكم ذلك السلطان فترة تقدر بثلاثة وثلاثين عاما ، حيث ظهرت تلك الشخصية القوية البارزة وسط تلك الأحداث من الصراع الداخلى في برنو وتطلق عليه المصادر أيضا على جاجى بن دونمة نسبة إلى أبيه أو على زينب نسبة إلى أمه وهذا هو الإسم الأشهر . لكن الإسم الحقيقى هو على بن دوناما لكنه لقب بعلى غازى نظرا للغزوات التى قام بها وتمثل فترة حكمه فترة إزدهار واستقرار برنو .

حيث قام على غازى بعزل السلطان عثمان بن قاضى (٨٦٦ - ٨٧٠ هـ / ١٤٦١ - ١٤٦٦م) بحيث أصبحت اليد العليا فى برنو لعلى غازى فى توليه وعزل السلاطين وقد ذهب السلطان المخلوع عثمان بن قاضى إلى الشرق حيث استقر فى دارفور وكردفان .

ثم قام على بن دومانا (على غازى) باختبار السلطان عمر بن عبد الله خلفا للسلطان عثمان بن قاضى ولكن هذا لم يتولى الحكم أكثر من سنة واحدة (٨٧١ هـ - ١٤٦٦م) لكن الإبن محمد بن محمد قام بقتل السلطان عمر بن عبد الله ثم حكم خمس سنوات (٨٧٢ - ٨٧٦هـ ، ١٤٦٧ - ١٤٧١) .

وقد كان السلطان محمد بن محمد آخر سلاطين برنو من اسرة سيف وفرع داود حيث جاء بعدهم على غازى الذى عزل السلطان محمد بن محمد وكان هذا من سلالة إدريس أو بني إدريس بن سيف ، حيث كانوا محاربين شجعان ورجالا أشداء ، قادوا البلاد إلى بر الأمان واستطاعوا أن يدعموا قوة برنو وأن يجعلوا منها أقوى دوله فى السودان الأوسط والغربى

وأن يبسطوا نفوذ برنو على مساحات واسعة من الأراضى ثم ضمها إلى برنو عن طريق الحروب وشن الغارات على القبائل الوثنية من أجل نشر الإسلام وادخال تلك القبائل فى طوع سلطنة برنو .

وقد استطاع على بن دوناما ، أن يجعل اسم برنو ساطعا فى سماء بلاد السودان الأوسط والغربى بعد أن كانت الحروب الداخلية والصراعات بين أفراد الأسرة المالكة قد مزقتها لفترة طويلة كذلك فإنه من خلال الوثائق إلى عثر عليها بارت فى برنو فأننا نعلم أن السلطان على غازى ارسل حملات عسكرية شمالا إلى كوار وذلك لمحاولة قطع طرق الإتصال بين البولالا وبين الشمال كما أنه أول سلطان من سلاطين الأسرة السيفية المطرودة من كانم بفكر فى استعادة تلك البلاد من البولالا .

ولذلك فإننا نجد أنه طلب مساعدة عرب وسكان واحة توات ومرابطيها والذين كانت تربطهم ببرنو وصلات وعلاقات وطيدة منذ فترة طويلة وقد كان ذلك الطلب من مرابطى توات فى عام (١٤٧٨م / ٨٨٣هـ) كما أنه عمل على رفع الكفاءة العسكرية لقواته بالحصول على الخيول لكى يستخدمها فى حروبه ضد الأعداء البولالا الذين كانت توجد لديهم الخيول الكثيرة .

بل أن بالمر يذكر أن السلطان على غازى قد تابع سياسة إسلافه من حكام برنو الذين طردوا من كانم من محاولة استرداد اقليم كانم من سادتها البولالا ، بل أنه قد وفق فى ذلك أكثر توفيق حيث جهز جيشا ضخما استطاع به أن يقضى على قوة جيش البولالا الذى كان يقوده بارى البولالالى إلا أن السلطان على غازى لم يستطيع أن يدخل نجيمى عاصمة الكانم ، واكتفى بما أظهره البولالا من هزيمة أمام قواته والقضاء على القوة الرئيسية المتمركزة فى كانم إلا أنه لم يستطيع أن يكسر قوة البولالا نهائيا ، وعلى هذا فقد ظل البولالا العدو القديم لبرنو والتى كانت قد سيطرت على كانم تقف عقبة فى سبيل التوسع البرنوى ناحية الشرق .

استعادة كانم من البولالا :

تولى عرش برنو وإدارة دقة الأمور بها بعد وفاة السلطان على غازى إبنه السلطان إدريس بن على بن دوناما ، والذى لقب باسم كاتاركامابى وظـل فى الحكم إثنـين وعشرين عاما (٩١٠ - ٩٣٢ هـ / ١٥٠٤ - ١٥٢٦م) وهو الإبن القوى الشجاع للسلطان على غازى ففى عهده احتلت برنو مركزا قويا وممتاز بل مرموقا بين دول السودان الأوسط والغربى حيث أن ذلك السلطان قد أبدى اهتماما خاصا دون اهتماما فى الدولة الأخرى بأنشاء جيش قوى بل تقويته بحيث يكون أقوى جيوش فى المنطقة بحيث نجد أنه عمل على تسليحه بأحدث ما وصل إليه العصر من أسلحة خاصة فإنه أكثر من استخدم الخيول بين صفوف

قواته بحيث أصبح سلاح الفرسان أقوى الفرق العسكرية فى جيش برنو ، بل أنه سلح المشاة بالدروع الواقية ذلك من أجل تحقيق حلم إسلافه فى استعادة مقاطعة كانم أرض أجداده من يد البولالا ومن هنا فإن الماى إدريس بن على قد أكمل سياسة أبيه على غازى وبدأ بمشروع ظل حبيسا فى أنفس سلاطين الكانمبو منذ طردهم من نجيمى عاصمة البولالا وهو اخضاع البولالا واستعادة الكانم من أيديهم ، حيث أنه لم يأت عام (٩١٣هـ - ١٥٠٧م) حتى أصبح حلم أجداده حقيقة واقعة وذلك بانتصاره على أمير البولالا دونما بن عبد الجليل وفتح مدينة نجيمى العاصمة القديمة لإمبراطورية كانم برنو ، حيث أن خروجه لقتال البولالا لم يكن قد مضى على توليته عرش البلاد أكثر من ثلاثة سنوات مما يدل على أنه أكمل مسيرة أبيه حيث أن أبيه على غازى كان قد وضع الخطط العسكرية لطرد البولالا من نجيمى عاصمة أجداده ومن هنا كان خروجه على رأس جيشه بعد ولايته العرش بوقت قليل ، حيث أنزل هزيمة ساحقة وكبرى بحاكم البولالا الذى بحكم كانم فى عاصمتها القديمة نجيمى وتم الأنتصار على دونما بن سالم البولالى وذلك بعد دخوله العاصمة نجيمى ، بحيث لم يسع الحاكم البولالى أمام تلك الهزيمة القاسية إلا أن يعلن الدخول فى طاعة السلطان إدريس بن على وأن يخضع لها الخضوع النهائى وأن يدفع الجزية .

وفى ذلك يقول الإمام أحمد بن قرطو مؤرخ بلاط برنو فى كتابة الماى إدريس حاكم برنو بعد أن أصبح إدريس ابن على خليفة فى أرض برنو ، فإنه حشد جيشا كبير فى الحمر (يقصد كله الحمر ذلك القوم من القبائل العربية صاحبة البشرة البيضاء والمحمرة وقد كان ذلك اصطلاح يطلق على القبائل العربية تميزا لها عن السود) والسود وتوجه إلى أرض كانم وحارب السلطان دوناما بن سلما وانتصر عليه ، ومن ثم بعد تلك الإنتصارات فقد هرب دوناما مع فلول جيشه المهزومة .

ودخل الجيش المنتصر بقيادة إدريس مدينة شيما Sima (وهى مدينة نجيمى العاصمة القديمة لسلاطين الكانم بل هى العاصمة الشهيرة عند الملوك السيفيين وأقام بها فترة من الزمن) على أن الإستيلاء على نجيمى لم يؤدى إلى نقل عاصمة برنو (برنى) إليها أو اقامة سلاطين برنو فيها بل ظلوا فى عاصمتهم الجديدة التى قام السلطان على غازى بتشيدها وعلى هذا فقد استطاعت جيوش إدريس المنتصرة أن تطرد البولالا نهائياً من العاصمة ومن كل كانم وإعادتها إلى حظيرة الإمبراطورية بعد مائة واثنين وثلاثين عاما من طرد السلطان داود منها .

بل ومن طرد السلطان عمر بن عثمان بن إدريس منها فى عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧م ، ومع ذلك فإن العاصمة نجيمى العاصمة القديمة للسلطنة والتى قام المايات البونونين بتجهيز القوات العسكرية لأجل تحريرها من أيدى البولالا لم تعد العاصمة السياسة الأولى للسلطنة

بل أنه بعد تحريرها أصبحت شبه مهجورة ومن هذا التاريخ أصبحت كانم جزء من إمبراطورية برنو ، بعد أن كانت برنو جزء من امبراطورية كانم وكان السلطان إدريس بن على ، قد رضى بأن يتولى عرش كانم السلطان البولالى المهزوم دونما بن سالمى (عبد الجليل) لكنه فرض عليه أن يخضعه خضوعا نهائيا للإدارة المركزية البرنوية فى العاصمة برنى بل أنه فرض عليه أن يدفع جزية سنوية لبرنو .

ولكن عندما مات الملك دوناما بن عبد الجليل ، فقد تولى أمور كانم من بعده أخيه الملك آدم بن عبد الجليل ولذلك فأننا نجد أن السلطان إدريس قد اضطر إلى أن تجهز قواته العسكرية ويزحف إلى كانم مرة ثانية لكى يقاتل آدم بن عبد الجليل الذى أعلن العصبان والخروج عن طاعة الدولة فى العاصمة المركزية برنى ومن ثم هزمه السلطان إدريس وقتل الأمير آدم فى هذه المعارك واضطر السلطان إدريس أن يمكث فى كانم فترة طويلة وذلك لكى يدعم وينظم الأمور فى البلاد وأن يحكم سيطرته على كانم ، ومن ثم أخطر أمراء البولالا أن يدفعوا الجزية سنويا لبرنو ، فى نفس الوقت ظلوا تابعين تبعيه اسمية لمايات برنو ، فضلا عن أن البولالا لم ينقرضوا نهائياً وأن سلطانهم لم ينتهى نهائياً ، بل أنه فى نفس الوقت ظلت البولالا شوكة فى جنب برنو ، فلم يتعد نقود برنو الجديد أرض الكانم ، بل بعض مساحات صغيرة ومحدودة تخف بالشواطىء الشرقية لبحيرة تشاد رغم انتصارات برنو فى كل هذه الحروب ورغم حملاتها المتكررة على كانم .

وكما ظل البولالا شوكة عظيمة فى جنب برنو ورغم أن السلطان إدريس بن على قد ظفر بالعديد من الإنتصارات عليهم ، الأ أن البولالا ظلوا يسببون المتاعب للسلطة المركزية مما اضطر حلفاء السلطان إدريس بن على أن يرد على نفس سياسته فى متابعة الضرب على أيدى البولالا وإنزال الهزائم بهم كلما لاحت الفرصة لهم وكلما أحسوا بأن هناك خطر قد يأتى من الشرق من ناحية كانم حيث البولالا لازالوا يشكلون ذلك الخطر ومن هنا فاننا نجد السلطان محمد بن إدريس بن على غازى الذى ولى الحكم خلفا لوالده قاهر البولالا إدريس والذى حكم فترة تقدر بتسعة عشر عاما (٩٢٣- ٩٥١هـ / ١٥٢٦ - ١٥٤٥م) قد سار على سياسة والده وكان سلطانا قويا شجاعا ، نجح فى كل الميادين وحقق نجاحا عسكريا ساحقا فى الحروب التى خاضها ، وذلك بأن أرسل قواته العسكرية ضد البولالا فى كانم حيث قام بقتل الأمير قاضى بن عبد الجليل أمير البولالا فى كانم ، وذلك لأن الأمير البولالى كان قد عمل على مهاجمة السلطان محمد بن إدريس بعد توليه العرش فى برنو ولم يمض على توليته عرش البرنو أربعين يوما وذلك انتقاما من الهجمات الساحقة التى قام بها والده السلطان إدريس على بلاد كانم واخضع البولالا فى كانم خضوعا نهائيا لسلطنة برنو ، ومن ثم نجح محمد ابن إدريس فى اخضاع كانم لولايته المباشرة .

وتولى إدارة شئون السلطنة فى برنو وحكمها بعد السلطان محمد أخيه السلطان على بن إدريس والذى حكم عاما واحد (٩٥٢هـ - ١٥٤٥م) وكان سلطانا عادلا ورعا ومحاربا عظيما شجاعا ، نجح فى بقاء كانم مرتبطة بحكم برنو وقد عرف السلطان على باسم على حارق البولالا وذلك لأنه سار على سياسة والده السلطان إدريس وأخيه السلطان محمد فى قتال شعب البولالا وكسر شوكته والعمل على عدم اتاحة الفرصة أمامه لتحقيق أية انتصارات أخرى على شعب الكانمبو والكانورى ، لذا ترى أنه هزم سلطان البولالا عبد الرحمن (١٥٣٠ - ١٥٥٤م) واستطاع أن يأسر ثلاثة من ابنائه ويأخذهم معه أسرى إلى العاصمة برنى بعد أن قاتلهم خمسة أيام متصلة واستطاع أن يشتت شمل البولالا ، حتى أن بعض أبناء عبد الرحمن الذين لم يقعوا فى الأسر فروا بشعب البولالا إلى الشمال طلبا للنجاة وسعيا وراء الإختفاء عند سكان تلك المناطق . وقد تزوج السلطان على بن إدريس من أميرة من البولالا وهى التى أنجبت السلطان إدريس الوما حيث كان زواجه منها فى عام ١٥٤٥ . وقد قتل السلطان على وهو يقاتل البولالا فى أرض كانم بالقرب من نجيمى ، وهذا دليلاً على أن البولالا لازالوا يشكلون خطرا على أمن دولة البرنو وذلك لإستمرار القتال والحروب بين الطرفين وقد قام السلطان على بن إدريس الذى لقى حتفه وهو يحارب البولالا بعد أن إزلهم قد لقب بأنه دخان البولالا أو حارق البولالا كما سبق ذكر ذلك وفى ذلك يقول أحمد بن فرطو فى كتابه الذى ترجمه بالمر إلى اللغة الإنجليزية عن السلطان إدريس الوما وسنوات حكمه الأولى أن أهل كانم جميعهم قد خضعوا للماى على وبذلوا له الطاعة .

وقد آلت أمور السلطنة فى برنو بعد مقتل السلطان على بن إدريس بن على غازى إلى ابن أخيه السلطان دوناما بن محمد بن إدريس بن على غازى الذى لقب باسم جاما رامى وقد حكم تسعة عشر عاما (٩٥٣- ٩٧١هـ / ١٥٤٦ - ١٥٦٣م) والذى عاصر سلطان البولالا محمد عبد الجليل بن قاضى والذى ولى أمور البولالا بعد السلطان عبد الرحمن ، واستطاع السلطان دوناما بن محمد أن يهزمه عندما حاول قائد البولالا محمد بن عبد الجليل بن قاضى مهاجمه برنو ، وأن تدور معركة بينهما فى بربروا Berberuwa ولكن السلطان دوناما هزمه شر هزيمة بل وتتبعه فى كانم حيث هزمه مرة ثانية واستطاع أن يبعد عدد كبير من رجال البولالا الكبار من أرض كانم وبذلك استقرت الأمور فى كانم نوعا ما وظلت مرتبطة ببرنو ولم يعد بعد ذلك أهل هذا الإقليم من البولالا فى القيام بأى عمل ضد برنو بعد أن أذاقهم السلطان دوناما الهزيمة القاسية وأسر معه كبار رجال الدولة والبلاط وأخذهم معه رهينة إلى برنى عاصمة البرنو وولى السلطنة فى برنو بعد وفاة السلطان دوناما بن محمد بن إدريس ابنه السلطان عبد الله (دالا) ابن دوناما والذى حكم سبعة أعوام (٩٧٢

– ٩٧٨هـ / ١٥٦٤ – ١٥٧١م) فانتهز الفرصة المواتية له الأمير البولالى محمد بن عبد الجليل الذى كان قد عاد إلى كانم مرة أخرى والذى كان لايزال يحكم كانم فى الأجزاء الشمالية من البلاد وقام بغارة كثيفة على برنو وصحب معه فى هذه الغارة شعبه وأمرائه ورؤساء الأقاليم والمدن واستمر فى الإغارة على برنو ليل نهار ، كما كان يفعل فى عهد السلطان دوناما ابن محمد ولم يقلع عن عادته فى الإغارة على برنو حتى موته وعندما تولى الأمير محمد بن عبد الجليل بن قاضى البولالى تولى بعده ابنه عبد الله ، وبذلك لم يستطع البولالا وسلطانهم الجديد عبد الله الدخول فى معركة وجها لوجه مع شعب البرنو وسلطانه بل استمروا فى الإغارة على الحدود والقيام بأعمال السلب والنهب .

كما أن عصر السلطان إدريس الوما الذى تولى مقاليد الأمور فى برنو لفترة ثلاثة وثلاثين عاما (٩٧٩ – ١٠١١هـ / ١٥٧١ – ١٦٠٣م) قد قام باحضار الأسلحة النارية الحديثة من مصر وطرابلس وذلك بعد تأدية فريضه الحج ، بل أنه درب عدداً كبير من رجاله على استخدامها وبذلك ضمن السلطان البرنوى بجيشه التفوق العسكرى فى كافة المعارك التى يدخلها ضد أعدائه كما ضم إلى جيشه بعض الجنود والضباط الأتراك والطرابلسيين وبعض المصريين الذين صحبهم معه فى طريق عودته بعد أداء فريضه الحج ، ومن هنا فإنه استطاع أن يحقق العديد من الإنتصارات والتى منها الإنتصارات المتعددة على شعب البولالا كما ذكر ذلك على أبو بكر فى رسالته للدكتوراه (الثقافة العربية فى نيجيريا) أنه قام بإخضاع قبائل البولالا سبع مرات ، وذلك لأن السلطان عبد الجليل قائد البولالا ، قد حشد قواته وتحرش بالسلطان إدريس الوما ، بعد أن قدم إلى أراضى برنو وقدم عبد الجليل ليقاتل السلطان إدريس وكان معه أعداد قليلة من الجنود ويبدو أن تلك العملية التى قام بها أمير البولالا كان القصد منها الإغارة على الحدود والقيام باعمال السلب والنهب والخطف والإعتداء على الأهالى سكان الحدود بين كانم وبرنو وقد دارت بين الطرفين معركة لم يصمد فيها قائد البولالا لكنه انهزم فى منتصف النهار وانكسرت قواته مما اضطره إلى الفرار والإنسحاب إلى الشرق ونتبعهم السلطان إدريس حتى اختفى لهم كل أثر وذلك لأن الأسلحة النارية حققت له الإنتصار السريع لأن تلك الأسلحة لم تكن معروفة فى السودان الأوسط والغربى لذا كانت خطته التى يتبعها فى قتاله مع عدوه أن يقاتله بالسلاح الأبيض والأسلحة المستخدمة فى ذلك الوقت حتى إذا حمى وطيس القتال أصدر الأوامر للجنود الحاملين للأسلحة النارية (البنادق) أن يطلقوها طلقة رجل واحد فلا يسع العدو إلا أن يولى أدباره مذعورا ومهرولا تاركا ورائة مئات من القتلى والجرحى .

وقد سجل أحمد بن فرضوا فى كتابه حروب السلطان إدريس الوما . التى منها حربه ضد الكانم حيث ذكر الحملات الحربية التى شنها على كانم وحكامها البولالا وسبب هذه

الحروب رغم الصلة القائمة بين كانم وبرنو ، إلا أن من الأسباب القوية التى دفعت السلطان إدريس إلى القيام بغزواته على أرض كانم عدة مرات أن مغتصباً من البيت البولالى استولى على العرش فى كانم وطرد السلطان (الأمير) القائم بالحكم الذى كانت تربطه صلة نسب ورحل مع السلطان إدريس الوما ، مما اضطر السلطان إدريس إلى القيام بشن الحرب عليه ورغم انتصار السلطان إدريس فإنه منيى بخسائر فادحة ، لكنه نجح فى اعادة الأمير المخلوع إلى عرش كانم وارجاع كانم إلى الهدوء والتبعية وقد كانت تلك الحملات عام (١٠٠١ هـ/ ١٥٩٢م) والتى جاء وصفها وذكرها عن أحمد بن قرطوا حيث قال لقد وصلت إلى بورنو والسلطان إدريس الوما أن السلطان عبد الجليل ، السلطان البولالى المناؤى ، فقد قدم جيشه أمام السلطان محمد بن عبد الله حليف وصهر السلطان إدريس الوما وذلك فى معركة شمال كانم فى يوم الأربعاء فى شهر جمادى الآخرة عام ١٠٠١هـ وما النصر إلا من عند الله ، وبلغنا أن السلطان الحاج إدريس الوما هاجم السلطان عبد الجليل فى مدينة كياكا Kiyayaka ومن ثم فقد لاذ السلطان البولالى عبد الجليل بالهروب واختفى فى الصحراء ونجح السلطان إدريس فى ضم القبائل البدوية واخضاعها تحت نفوذ وحكم السلطان محمد ابن عبد الله محمد صهر وحليف الماى إدريس ، وذلك لكى تكون تلك القبائل اليدوية التى تسكن شمال كانم سندا قويا بل دعما لقوة السلطان محمد بن عبد الله وتقف ضد أى هجوم يقوم به السلطان عبد الجليل وقد ساندت وأيدت تلك القبائل فيما بعد السلطان محمد بن عبد الله صهر السلطان إدريس وقد أقام السلطان إدريس ثلاثة أو أربعة أيام فى كانم صحبه صهره وذلك فى مدينة كاسودا Kasuda وذلك بعد أن كان السلطان إدريس قد قام باستدعاء السلطان محمد بن عبد الله البولالى ، الذى لبى ذلك الطلب وقدم ومعه كل قواته العسكرية طرف السلطان إدريس ، ومن ثم فقد تم الإتفاق بين الطرفين البولالى والبرنوى بقيادة محمد بن عبد الله والسلطان إدريس الوما على رسم الحدود التى توضح حدود كانم وحدود برنو مع خضوع سلطان البولالا لسلطات برنو ودفع الجزية السنوية والتوقيع على كل ما تم الإتفاق عليه والتى منها ضم بعض المناطق التى كانت جزاء من كانم إلى برنو والتى منها مقاطعات كاجوستى ، وسبيرو ، وياباليا فى باجرمى ، مما يدل على أن كانم كانت تسيطر على أجزاء فى أراضى باجرمى فى ذلك الوقت ، وقد كانت كل هذه الأراضى تقع ضمن الأراضى التى تسيطر كانم عليها وتبسط نفوذها من قبل برنو لكن تلك الإتفاقية حددت الحدود السياسية على أسس جديدة تختلف عما كان عليه الوضع فى السابق وبعد ذلك فإن السلطان إدريس قرر منح السلطان البولالاى محمد بن عبد الله حكم كانم وهذه الأجزاء الباقية وأخذ عليه قسما هو وقومه على القرآن الكريم أن يظلوا مدى حياتهم على الولاء والطاعة لسلطات البرنو وعدم الخروج عن تلك الطاعة وعدم القيام بأى

عصيان من شأنه أن يعكر جو العلاقات بين الطرفين ومما يجب التنوية إليه هنا أن ما أورده أحمد بن فرطوا بشأن الإتفاق بين السلطان إدريس الوما والسلطان محمد بن عبد الله البولالاى بشأن الحدود السياسية بين كانم وبرنو فإن ذلك وإن كان قد حدث فى الربع الأخير من القرن السادس عشر الميلادى إلا أن تلك قد تكون هى أول ظاهرة سياسية بشأن تعديل وتوضيح الحدود السياسية فى تلك البقعة من أفريقيا حيث السودان الأوسط ، حيث أن تلك المناطق لم تكن تعرف تعين حدود سياسية رسمية معينة .

ويبدو أن الذى ساعد إدريس الوما على تحقيق تلك الإنتصارات السريعة على البولالا أنه كما جاء فى أقواله أنه تربى فترة طفولته فى اقليم البولالا وقد كانت والدته أرسلته إلى إقليم البولالا خوفا من أن يقوم السلطان على غازى بقتله ولقد أرادت الماجرا عائشة كيلى التى كانت تتولى مقاليد الأمور فى بورنو أن تحضر السلطان إدريس من بلاد البولالا فإنها ذهبت إلى أرض البولالا ومعها شعبها ، ولكن عندما سمع البولالا بذلك فإنهم تجهزوا للحرب واستعدوا لها أكمل استعداد لكن الماجرا عائشة قالت لهم انها لم تأتى للحرب ولكن جائت لكى تبحث عن ابنها أدريس والنظر فى أموره ، وبعد فترة تنازلت الماجرا عائشة عن العرش للسلطان ولقد كان جد السلطان أدريس لأنه هو سلطان البولالا السلطان عمر البولالى الذى أمد أدريس بتسعمائة فارس بأسلحتهم وقد أجيب إدريس إلى طلبة ومن ثم عاد إدريس إلى نجاز رجوموا عاصمة برنى العاصمة السياسية لبرنو .

وتذكر الرويات أن السلطان إدريس قام بقتل رجال الفرسان البولالايين الذين صحبوه فى رحلته ولم يسمح بعودة إلا قائدهم الذى أخبر السلطان عمر البولالاى بما حدث ومن ثم أعلن السلطان عمر البولالاى الحرب على السلطان إدريس الذى كان على علم بخبر تلك الحملة ومن ثم فقد استعد لها كل استعداد وجاء جده أمير البولالا لمكان المعركة ولكن البولالايين هزموهم لأن السلطان إدريس كان قد أخذ زمام المبادرة ووقع الأمير عمر فى الأسر وسلب السلطان أدريس عن والده فقال له السلطان البولالاى أن والده قد جرح فى إحدى المعارك ثم مات بعد ذلك بعد أن كانت المعركة قد دارت فى برنى نجامى ومن ثم قام السلطان إدريس بقتله .

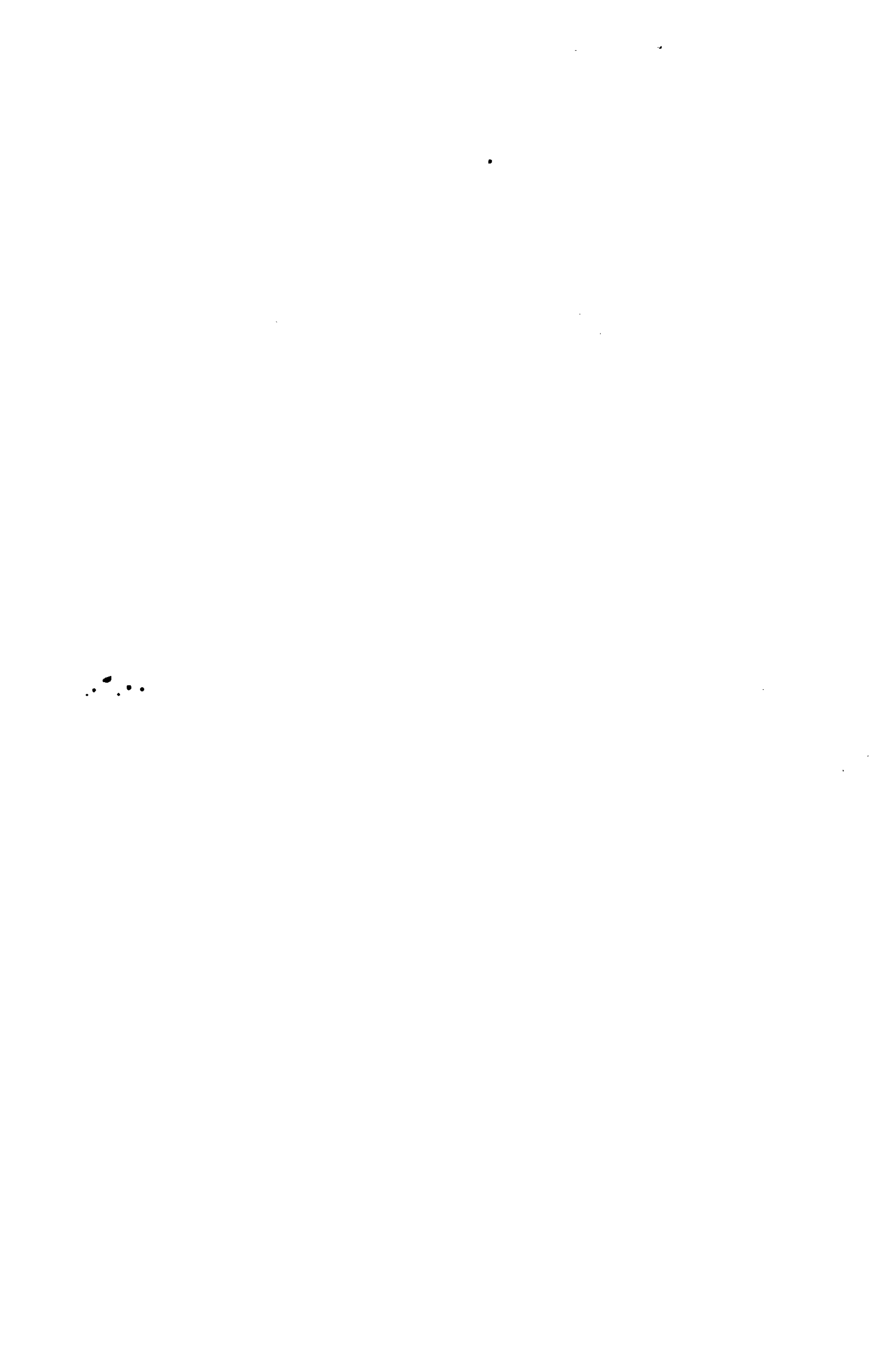
ولقد استطاع السلطان إدريس أن يجهز قوات تعدادها سبعين ألف جندى وهاجم أرض البولالا فى كانم بعد أن كانت الحرب قد استمرت سبعة أيام بلياليها وهزم سلطان البولالا ومن ثم اضطر إلى القرار شمالا .

ومن ثم ذهب السلطان إدريس إلى ألوا Alwa وإلى مادوجو Madogo وماجرنى Magrne ومن ثم تابع إدريس انتصاراته مما اضطر البولالا إلى التراجع إلى منطقة بحر الجيران Guraan وفى آخر حرب بين كانم وبرنو والبولالا فإن السلطان إدريس ضم أرض

كانم إلى رؤساء قواته (كبار القواد) وقسمها بينهم إلى عشرة أقسام جعل على كل قسم من هذه الأقسام رئيس مسؤل عن إدارة كل إقليم ثم بعد ذلك عاد إلى العاصمة برنى بل أن المخطوطات التى عثر عليها بالمر Palmer يشير إلى أنه عندما قام بغزو أراضى كانم فإن قواته من الفرسان كانت سبعين الف فارس وعند عودته إلى عاصمته فإن قواته لم تكن تزيد عن سبعمائة فارس ، ويبدو أن عصر السلطان إدريس الوما والغزوات المستمرة التى قام بها على أرض كانم والحملات شديدة الوطأة قد وضعت حدا لنهاية الحرب بين البولالا والبرنو ، ومن ثم كان تقسيمه أراضى كانم إلى عشرة أقسام ووضع على رئاسة كل إقليم زعيم إحدى قواته لكى يكون مسئولا عنه كما أنه ضم بعض المقاطعات إلى برنو بعد أن قام بأقتطاعها من أراضى كانم .

ومن ثم فإنه بعد ذلك القتال النهائى والإخضاع الشامل لأراضى كانم فإننا لم نعد نسمع عن أية تحرشات أو عدوان بين كانم و برنو ، ذلك لأن إدخال السلطان إدريس الوما للأسلحة النارية فى برنو قد وضع حدا فاصلا لفرض السيطرة على كانم ، وبذلك طويت فى عهد السلطان إدريس صفحات الصراع بين كانم بعد أن خضعت لنفوذ البولالا حيث كان طرد البولالا لسلطان الكانم عمر بن عثمان بن إدريس عام ١٣٩١م وإنتصار السلطان إدريس الوما عام ١٥٩٢م أى أن الصراع استمر بين الطرفين فترة تقرب من المائتى عام كانت البولالا تحاول فيها أن تحتفظ بالأراضى التى سيطرت عليها فى كانم بالإضافة إلى العدوان المستمر على أراضى برنو ، لكن عهد السلطات إدريس كان قد وضع نهاية لذلك الصراع وبدأ سكان البولالا يتقوقعون داخل أراضيهم حول فترى Fitri ولم ينظروا إلى الغرب حيث كانم برنو ، ولكن صراعهم كان مع واداى وباجرمى وسوف تشاهد بعضا من ذلك الصراع والصلات عند الحديث عن باب صلات البولالا بالعالم الإسلامى .

***



الباب الرابع
الأحوال العامة بسلطنة البولالا



شمال شرق بحيرة تشاد قليلا تقع بحيرة فترى الصغيرة التى يقل حجمها عن ١٪ بالنسبة لبحيرة تشاد حيث تصب فى تلك البحيرة ثلاثة أنهار صغيرة لكن تلك الأنهار وتلك البحيرة تكون حولها منطقة زراعية بالإضافة إلى صلاحيتها للرعى حيث تكثر حشائش والسفانا الطويلة التى تساعد على الإستقرار ومن هنا كان استقرار البولالا Bulala فى تلك المنطقة بعد إختلاطهم بالعديد من الاجناس والقبائل التى كانت تسكن تلك المنطقة .

بالإضافة إلى أن القرن الرابع عشر شهد سيطرة البولالا Bulala على تلك المناطق الواسعة فى كانم حيث المنطقة الواسعة حول بحيرة تشاد الواسعة وحيث الأنهار الطويلة التى تصب فى البحيرة مثل نهر الغزال (بحر الغزال فى السودان الشرقى) ونهر شارى وغيرهما الكثير من الأنهار القصيرة والصغيرة التى تصب فى بحيرة تشاد حيث يشكل حوض البحيرة منطقة صالحة للزراعة والرعى على مسافات واسعة بعكس منطقة بحيرة فترى الصغيرة .

ومن هنا فإن تلك المنطقة الواسعة الممتدة من بحيرة فترى شرقا إلى منطقة بحيرة تشاد غربا بالإضافة إلى السيطرة على منطقة كانم وباجرمى فإن دولة البولالا كانت تتحكم فى منطقة زراعية واسعة(١) .

بالإضافة إلى أن قبائل البولالا كانوا يهتمون بتربية الخيول حيث ملكوا اعداد كبيرة وعظيمة منها .

وقد ساعدت تلك الخيول على احراز الإنتصارات فى العديد من الحروب التى دخلوها ، فى حين أن أبناء عمومتهم السبقيون سكان كانم لم يحصلوا على سوى أعداد قليلة من الخيول التى كانوا يستعملونها فى حروبهم(٢) .

بالإضافة إلى قبائل البولالا الكثيرة والذين أصلهم الكنمبو قد تشعبت منها مجموعات صغيرة من القبائل عملت كل قبيلة فى حرف معينة والتى منها قبائل الوركود ، الديناجر الكنيما ، الكنيا ، المدوجو(٣).

وعلى ذلك فإن الحديث سوف ينصب على النواحى الإقتصادية لاسيما الموارد الزراعية والنباتية حيث أن بالمر Palmer اشار إلى شعب البولالا سكان فترى وكانم قد كانت بينهم مجموعات كبيرة رعاة آبل وخيول أى أنهم يعملون بحرفة الرعى(٤) إضافة إلى أن هناك

---

(1) Tramingham . J Ahistory Of Islam In West Africa . P 113 .
(2) Palmer : The Bornu Shara and Sudan . P 12 6 .
(٣) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط . ص ٤٣٥ .
(4) Palmer, R : Opcit . P 14 b .

مجموعات أخرى كانت تعمل بالزراعة حول حوض بحيرة فترى وبحيرة تشاد وفى أحواض الأنهار المتعددة التى تصب فى فترى وتشاد إضافة إلى أن بعض السكان كانوا يعملون فى حرفة صيد الأسماك فى بحيرة تشاد وفترى أيضا[١].

ولما كانت أرض فترى وكانم أرض خصبة فأنها جادت للزراعة وغلت المحاصيسل الكثيرة وساعد ذلك على ازدياد الثروة الحيوانية حيث الرعى ومناطق الرعى الوفيرة وحيث تربية الإبل والخيول وغيرها من أنواع الماشية الأخرى فمن الناحية الزراعية التى اشتهرت بها بلاد البولالا بكثير من الخيرات المتنوعة[٢] وقد أشار القلقشندى فى كتابه صبح الاعشى إلى بعض هذه الميزات الزراعية الوفيرة فقال إن غالب عيشهم على الأرز الذى توافر عندهم والذى كان بمثابة غذاء شعبى رئيسى جادت به أرضهم وفاضت وكان ينمو ويتكاثر بريا بغير سقاية أو رعاية أو تعهد[٣]كما أنه توجد فى بلادهم زراعة القمح والذرة وأنواع الفواكه متوفرة بكثرة حيث يوجد الليمون والتين الرطب[٤] ويضيف المقدسى إن بلادهم توجد بها الفواكه الكثيرة والأطعمة وحشائش أخرى تنمو فى هذه البلاد .

وعلى هذا فإن أهل هذه البلاد يمارسون الزراعة وتقوم بعض المجموعات اليدوية بتجاره رعى الإبل والماشية وزراعة المحاصيل الزراعية ، كما أن اقتصاديات إقليم فترى وكانم تقوم على ثمار النخيل والقمح والذرة وبعض الخضروات والبصل والطماطم والبطاطا وغيرها من اللحوم والجلود والزبد مع أهل الواحات الغربية[٥].

كذلك فإن الأجزاء الشمالية من البلاد قد انتشرت بها أشجار النخيل فكانت كثيرة حتى أنهم اعتمدوا عليها وعلى ثمارها كثيرا فى غذائهم اليومى ، ولما كانت أشجار النخيل تتحمل الجفاف والعطش ولا تحتاج إلا إلى اليسير من الماء ، فإن ذلك ساعد على انتشارها فى مناطق عديدة من دولتهم المترامية الأطراف[٦] وخاصة تلك المناطق الشمالية المجاورة لمصر وليبيا حيث كانت جميعها تخضع لسلطان البولالا عندما بسطوا نفوذهم على كانم

---

(١) ابن سعيد : بسط الأرض ص ٤٨ .

(٢) ريمون فيرون : الصحراء الكبرى ، ترجمة جمال الدين الدناصورى ص١١٤ .

(٣) العمرى : المسالك ، جـ٢ ورقة ٤٩٠

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ص٢٨٠ .

(٥) الشاطر بصيلى : نفس المرجع ص٤٣١ .

(٦) ابن سعيد المغربى : بسط الأرض ص٤٩

وقد أمدت بلادهم فى الجنوب بكميات هائلة من البلح الرطب والتمر بصفة خاصة[1].

أما فى الجنوب حيث أنهار شارى ولوجون والغزال وغيره من الأنهار القصيرة فقد انتشرت أشجار الموز التى كانت تنمو نموا بريا والذى كان المواطنون فى فترى وكانم يميلون إلى أكلة حيث كانت محاصيله كثيرة ومتوفرة[2]

كذلك اشتهرت مدينة جاجه GaoGa التابعة لفترى والتى كانت تقع على الحدود بين فترى وكانم بخصوبتها وجادت بعطائها حيث تنوعت فيها المحاصيل والخيرات وذلك بالإضافة إلى وفرة خشب الأبنوس الذى يستفاد بخشبة فى منافع عدة ، كما توفر فى البلاد الكثير من القصب الذى ينمو بريا حيث استغله المواطنون فى صناعة القوارب لعبور بحيرة فترى وبحيرة تشاد وكذلك استغلوا هذا القصب فى صناعة منازلهم حيث أن منازلهم كانت مبنية من أعواد الخشب وقد اشتهروا بها[3] .

كذلك فإنه يمكن القول أن الكثير من المنتجات الزراعية من الحبوب والخضر بل وبعض الحيوانات التى عرفت فى بلاد البولالا وبقية بلاد السودان الأوسط والغزبى عامة قد وفدت أصلا من مصر منذ الأزمنة القديمة وذلك نتيجة للصلات والعلاقات المستمرة ومن هذه الحبوب والحيوانات[4] ولقد كان اعتماد هذه البلاد فى الأساس منصبا لاسيما فى الوسط والجنوب على مصادر الأنهار والبحيرات التى عرفت فى البلاد ، مثل بحيرة فترى وبحيرة تشاد العظيمة ذات المياه العذبة وبحيرة كورى العميقة بمياهها الحلوة ونهر شارى ولوجون والغزال حيث تنبع هذه الأنهار فى المنطقة الإستوائية من الجنوب إلى الشمال وهى تشبه نهر النيجر تماما وتنتهى هذه الأنهار إلى بحيرة تشاد حيث تصب فيها ونهر شارى هو أعظم رافد لها[5] .

ويحدثنا ابن سعيد عن أنواع كثيرة من الحيوانات فى مملكة جاجه التى تحدث عنها الحسن الوزان أيضا فيقولا انها موصوفة بالخصب وكثيرة الخيرات والطواويس والببغاء والدجاج المرقط والغنم التى دون الحمير الصغار ولها صور تخالف صور كباشنا والزرافات[6] .

ويحدثنا ابن رستة فى كتابه الأعلاق النفسية عن حيوانات تلك المناطق فى السودان

---

(١)اليعقوبى كتاب البلدان ص٣٤٥.

(٢) أبو القداء : تقويم البلدان ص١٢٨

(3) Wells, G : introducing Africa : P .8.
(4) Johnston, H : The opening of Africa .P.20 .

(٥) جونتيه : الصحراء ، ترجمة أحمد كمال يونس ، ص٧٧ ص٧٩ .

(٦) ابن سعيد ، بسط الأرض ص٢٧ .

الأوسط والغربى فيقول فيها حيوانات مختلفة الأشكال والأحجام أيضا مثل الفيلة التى توجد فى البحيرات وفى الأنهار والتى كانت كثيرة العدد والطيور التى لم يرى أعظم منها حجما ولكنهم لم يستغلوا هذه الأفيال الكثيرة العدد ويستفيدوا منها فى حروبهم الكثيرة التى عرفوا بها فى سبيل نصرة الإسلام ، كما لم يستغلوها فى السلم للركوب والنقل[١] .

كما أشهرت الإبل عندهم حيث كانوا هم فى الأصل رعاة للإبل والخيول والأغنام وأنهم كانوا يأكلون لحومها[٢] وعمل سكان الشمال من أهل البولالا ومن جاورهم فى الإغارة فى الشمال على تأجير ابلهم هذه الكثيرة لحمل السلع المختلفة إلى العديد من البلاد ، بل أن حاكم إقليم مانان Manan الذى كان يبعد عن نجيمى عاصمة الكانم بمسافة ثمانية كيلو مترات كان يملك الجمال والماعز وأنهم أعطوا عناية خاصة لتربية الماشية ، بل أن أهل فترى والكانم قد اصطادوا حيوان الزراف الذى كان يكثر عندهم فى منطقة السفانا أو الغابات والذى اشتهروا به وتفننوا فى اصطياده وهم على ظهور جيادهم واستخدموا فى اصطياد ذلك النوع من الزراف الخيال المسرجة بالإضافة إلى أنهم تسلحوا بالحراب المسمومة التى كانت تخدر الحيوان بمجرد إصابته[٣] .

كما اهتم حكام البولالا بتربية الخيول التى كانت تكثر فى بلادهم بالإضافة إلى أنهم استوردوا الأنواع الجيدة من مصر وبلاد المغرب العربى بل أنهم عنوا عناية كبرى بهذه الخيول العربية وتدريبها ، حتى أن فرسانهم كانوا مصدر فزع ورعب للجيران ، لاسيما بعد أن ذاعت شهرة فرسان البولالا لاسيما بعد احرازهم العديد من الإنتصارات ضد أبناء عمومتهم سكان كانم حيث ذاعت شهرتها جميع الأقاليم الشاسعة بين النيل والنيجر[٤] .

كما أنه توافرت لديهم الثروة السمكية حيث البحيرات تشاد وفترى وكوار حيث كان يصطادونها ويقومون بتمليحها ليصدرونه إلى بقية أنحاء البلاد ، كما كانت توجد بحيرة الشوك جنوب شرق كوار فى داخل الأراضى التى خضعت لسلطة البولالا حيث كانت بحيرة عذبة ولم تكن عميقة بل كانت ضحله مما سهل عملية صيد الأسماك منها حيث كانت تلك البحيرة تحدها عين تأتى من الجنوب[٥] هـذا عن الزراعة والثروة الحيوانية والسمكية.

---

(١) ابن رستة : الأعلاق النفيسة . ص١٠٢ .

(٢) الأدريسى : المغرب ص٣٤ .

(3) ALexander, B : from niger to Nile, Vol.2 P. 105 .

(4) Shinnie, M : Ancient African kingdoms . P . 70 .

(٥) ابن سعيد : بسط الأرض : ص٤٨ .

أما من ناحية الحرف الصناعية فقد كانت مدينة جاجرا الواقعة شرق مدينة جاجة عاصمة البولالا والتى تقع قريبة من بحيرة فترى مشهوره بالصناعات االتى تحتاج إليها دولة البولالا سواء فى الأقليم الشرقى أو أقليم كانم إلا أن سلاطين البولالا كانوا يولونها اهتماما خاصا نظرا لأهميتها فى كثيرا من الصناعات التى منها الحدادة والفخار والغزل وغيرها من الصناعات التى يحتاج إليها المواطن ، كما أن تلك المدينة نظرا لموقعها على حافة بحيرة فترى فقد كانت مركزا للاسطول الحربى الذى كان يستخدمه السلاطين فى مقاتله أعدائهم لاسيما القيام بالغزوات إلى بلاد الكفار حيث سهل استخدام الطرق النهرية فى الوصول إليهم(١)

ولقد تطورت صناعة السفن فى تلك المدينة عندما تم اخضاع السلطان إدريس الوما سلطان برنو لتلك المدينة عام ١٥٩٣م ، إذا إليه يرجع الفضل فى تطوير صناعة هذه القوارب إذ كان السكان قبل عهده يستخدمون القصب أو قطعة من الخشب مجوفة أو غير مجوفة فى عبور النهر وقد كان يطلق على هذه القوارب جاجارا Gagara نسبه إلى تلك المدينة وذلك بلغة أهل برنو .

ولكن السلطان إدريس الوما إذا أراد أن يعبر النهر إلى الأعداء فإن ذلك كان يستغرق منه يومين أو ثلاثة أيام وأن مثل هذا النوع من القوارب لايصلح لكى تستخدمه أعداد كبيرة من الجنود ومن هنا فإنه أمر بضاعة قوارب كبيرة وذلك لكى يقوم الجنود فى أسرع فترة ممكنة بالإنتقال إلى الأنحاء المعادية ولكى يتم شحن هذه القوارب بأعداد كبيرة وبالمعدات اللازمة للقتال(٢) .

والذى لا شك فيه أنه قام باستحضار أقوام من خارج برنو للقيام ببناء هذه القوارب التى ربما شاهد مثلها فى مصر أو عبر بها البحر وهو فى طريقه لتأدية فريضه الحج وبهذه القوارب استطاع مهاجمة قوارب قبائل بوددوما Budduma الصغيرة حيث سكان جزر بحيرة تشاد ، بل أنه أمر رجاله باغراق قواربهم مجرد رؤيتها وقطع الطرق النهرية عليهم ومدوامة الهجوم عليهم(٣) .

كذلك أشتهرت تلك الأماكن بصناعة أنواع من الفخار التى استخدموها كثيرا وزينوها من الخارج بنقوش عليها رسوم جميلة تظهر درايتهم وبراعة فنهم الشىء الذى يسر العين

---

(1) Triminghan, J . s : History Of Islam in west Africa .P .119 .
(2) Ahmed Ibn fartua : Mai Adris Alooma. P. 33 .
(3) Barth, H : Travels in North and central Africa . vol 3 .p 595 .

ويريح النفس واستخدموها كالأوانى يأكلون فيها ويشربون بها فى الحل والترحال[1] .

كما يدل على أن أهالى فترى وكانم من البولالا والمواطنون الذين احتوتهم تلك الإمبراطورية الواسعة والمترامية الأطراف قد صنعوا أنواعا من الأقداح المنحوتة من سيقان الأشجار الغليظة وكانت ذات أشكال متنوعة وقد اعتادت النساء أن يضعن فيه ما يتزين به ويتعطرن به من كحل وطيب وروائح ، كما أن تلك الأقداح قد جمعت بين الجودة الفائدة والجمال[2] كما قامت فى تلك البلاد منذ القدم أمكنه خاصة لصناعة الزعفران الذى استخدموه يتوسع فى صناعة الثياب التى كانوا يصنعونها[3] وقد اشتهرت كانم - بولالا- برنو بالمنسوجات المجسدة ، أى المدبوغة بالحر وهو الزعفران والتى كانت تصدرها إلى البلاد الأفريقية المجاورة بحيث كانت تلك البلاد تحتاج إلى تلك الأنواع من المنسوجات نظرا لرخصها عن الأنواع المستوردة من مصر وبلاد المغرب العربى وغيرها من البلاد الأخرى التى كانت تتعامل معها تلك الأقطار[4] ومن هذه البلاد ، أى بلاد برنو كما ذكر ذلك إبن بطوطة فإنه كان يؤتى بالجوارى الحسان والفتيان وبالثياب المجسدة ولشهرة برنو بهذه الثياب أو بالمنسوجات عامة ، كانت الثياب تستخدم كعملة واشتهرت هذه الثياب التى كان يستخدم الزعفران فى صياغتها باسم دندى وقد تعامل سكان تلك المناطق بهذه الثياب كنوع من العملة السائدة والمعترف بها والمتعارف عليها والتى كانوا يصنعونها ويجيدون صناعتها .

أما أهم هذه الصناعات والتى لعبت دورا هاما فى الحياة العامة فى بلاد البولالا وكان لها أثر فعال فى تطور الحياة اليومية فى امبراطورية البولالا فهى صناعة الحديد ، حيث كانت تمثل أعلى مكانة وأرقى مرتبة وتدل على مقدرة أهل ذلك الإقليم الفنية والتطورية حيث أن صناعة الحديد وأن كانت لاتزال تصنع بطريقة بدائية وغير متطورة بالقياس إلى ظروف العصر المحيط حيث القرن الرابع عشر الميلادى والخامس عشر والسادس عشر أو السابع عشر ، إلا أن صناعة الحديد كانت توضح مدى تقدمهم وتطورهم ومدى المامهم بهذه الصناعة ، فقد كانت صناعة الحديد من الصناعات التى عولت عليها الدولة كثيرا فى تقدمها وسد احتياجاتها فيما تحتاج إليه من أدوات لاسيما فى صناعة أنواع الأسلحة القتالية[5] .

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ص٦٧٩.

(٢) إبراهيم صالح بن يونس : تاريخ الإسلام فى كانم . برنو ص٦٧ .

(3) Allen, G.B. Fisher : slavery and Muslim society In Africa P . 59.

(٤) إبراهيم طرخان امبراطورية البرنو الإسلامية ص٢٦٥ .

(٥) عبد الرحمن زكى : الدول الإسلامية بغرب أفريقيا ص١٧٥ .

ولقد أظهرت الحفريات التى تمت فى مناطق كثيرة فى أراضى دولة البولالا أن جماعة الصو التى كانت تقطن بالتقريب جنوب غرب بحيرة تشاد أنهم اشتغلوا بصناعة الحديد حيث كانوا قد وصلوا إلى منطقة بحيرة تشاد قبل القرن العاشر الميلادى بقليل ، كما أنهم استقروا على شواطىء البحيرة الشرقية فى اقليم المراعى شمال تشاد ، ويقال أنهم قدموا من الشرق من شواطىء النيل حيث نسبتهم تلك الأقوال إلى مهاجرى مملكة مروى القديمة التى أسقطتها دولة اكسوم الحبشية(١) .

وقد أثبتت الدراسات وحفريات علماء الآثار أنه كان لهذا الشعب حضارة عظيمة وأنهم شعب متطورا من الناحية الفنية والإقتصادية وأنهم بنوا قرى عديدة وشيدوا المبانى بأنواعها من مختلف المواد حتى الحجرية منها(٢) كما كشفت الحفريات الحديثة عن مخلفاتهم الدالة على تقدمهم وتطورهم والذى يظهر فى اشتغالهم بصهر الحديد وغيره من المعادن التى شكلوها بنفس الطريقة التى عرفت فى وادى النيل والذين حققوا مكانة رفيعة فى صناعة الحديد والبارود وقد عاشت جماعة من الصناع المهرة المشتغلين بالحدادة إلى الشرق من بحيرة تشاد واشتهر كذلك الزغاوه بصفة خاصة بصناعة الحديد وأرتبط اسمهم بها وتعتبر الحدادة عملية وضيعة ومسيئة وارتبطت بالمهانة فى أذهان أهل هذه المنطقة جميعها ولذا كان الحدادين من الزغاوة منبوذين معزولين لا يتزوجون ولا يزوجون إلا بعضهم لبعض وكانوا يصنعون الحراب والسهام والأدوات الحديدية المختلفة التى تجد طلبا عليها (٣) .

وقد جلب النحاس إلى سلطنة البولالا (فترى - كانم) من أقليم وادای شمال شرق فترى كما استورد من تكدا التى كانت تقع شمال غرب برنو على مسيرة اربعين يوما من الزغاوة وكان سكان فترى يقومون باستخدام هذا النحاس فى كل ما يحتاجون إليه من صناعات وكانوا يستوردونه فى مقابل تصدير الثياب (٤) .

وقد استفادت سلطنة البولالا فائدة كبيرة بسيطرتها على كانم منذ عام ١٣٩٣ - ١٥٩١م ذلك قد وسع حدود سيادتها وضم إليها مناطق كثيرة بالإضافة إلى أن ذلك قد وفر لها السيطرة الكاملة على الطرق التجارية المارة ببلادها بعد أن ملكت القوة العسكرية التى قوضت بها دعائم الأسرة المالكة فى كانم وفرضت سيادتها على الأقاليم التى عرفت فيما بعد باسم باجرمى وقد أفادها ذلك فائدة كبيرة فى حركة التجارة عبر أراضيها وبذلك نجحت

---

(1) Davidson, B : old Africa Rediscovered . P . 101 .
(2) Crowder .M : The story of Nigeria . P . 36.
(3) Arkell, A. J : History of the sudan . P 149 .
(٤) ابن بطوطة : تحفة النظار من غرائب الأنصار وعجايب الاسفار ص٢٩٨ .

سلطنة البولالا الفتية فى أن تحقق أرباحاً طائلة نظراً لقوتها العسكرية وذلك من تجارتها وعمليات التسويق والوساطة وفى تجارة العبور والمرور بحيث كان بسط سيادتها على طرق القوافل التى تؤدى إلى الشمال حيث (ليبيا وتونس) وإلى الشمال الشرقى (مصر) وإلى وادى النيل[١] كل ذلك قد ساعدها على أن تكون بمركزها الجغرافى ملتقى لعدة طرق تجارية كانت تمر عبر أراضيها لاسيما بعد فترة سيطرتها على كانم ، مما هيأ لها أن تتبوأ مكانة فى عالم التجارة فى تلك العصور لاسيما فى القرن الرابع عشر إلى نهاية القرن السادس عشر كما منحها الثروة والغنى والشهرة ، بما أدى بها أن تستخدم كل هذه الموارد فى تقوية جيشها مما مكنها أن تنهى الوجود السياسى فى كانم وتسيطر سيطرة تامه على باجرمى وتمتد شرقا حتى واداى ولقد كان من أثر ذلك الجيش القوى الذى اعتمدت عليه أن وسعت حدود دولتها واعتمدت عليه فى السيطرة على تلك المناطق الواسعة واخضاع التابعين لها أو أداء رسالتها التى تحملها من أجل الدعوة الإسلامية حيث كانت تلك الأسرة إسلامية منذ نشأتها الأولى ومنذ أن وطئت أقدامها تلك البقاع حيث أن الإسلام قديم فى أصول تلك الأسرة التى دعت لنفسها نسبا عربيا قرشيا سيفيا .

ومن ثم استفادت من موقعها الجغرافى المناسب للتجارة فى السيطرة على طرق القوافل التجارية المتجهة شمالا عن طريق كوار فزان إلى البحر الأبيض المتوسط وشرقا إلى النيل[٢] وعلى هذا فقد كانت تلك المكانة الجغرافية فى وسط القارة الأفريقية مما اكسبها مكانة تجارية فى منطقة السودان الأوسط والشرقى والغربى حيث كانت تلك الطرق التجارية تصلها بهذه الطرق فى تلك الأقاليم، ولقد كان القرن الرابع عشر الميلادى ، الثامن الهجرى هو بداية الظهور كقوة اقتصادية وسياسية وعسكرية وذلك لتحكمها فى منطقة انتهاء الطرق ، والطرف الجنوبى لهذه الطرق كما كانت تلك الفترة الزمنية هى فترة فرض السيادة على الطرق التجارية شمالا حتى بلما وفزان وكوار وارتبطت تجارة كبرى ببلاد مالى وبقية بلدان السودان الغربى حيث دخل نفوذها السياسى إلى مشارق تمبكتو كما اتصلت ببلاد الشرق الأدنى وأصبحت مناطق فترى وكانم والهوسا والبرنو محطات استراتيجية لخدمة الطرق التجارية العابرة للصحراء[٣] .

---

(1) Davidson, B .: opcit . P. 112 .

(٢) زين العابدين السراج : دولة كانم الإسلامية . (رسالة ماجستير) غير منشورة . ص١٥٣ .

(3) Fitzgerth, W : Africa . P11.

طريق طرابلس - فزان ودوره فى نشر الإسلام واقتصاد البولالا :

كان هذا الطريق الذى يربط طرابلس شمالا يتجه إليها من الجنوب مباشرة وذلك لكونها محطة تجارية على ساحل البحر الأبيض المتوسط وباعتبارها بداية الطريق الصحراوى الهام الذى يتجه منها إلى قلب القارة الأفريقية[١] ولقد كان ذلك الطريق الذى يبدأ من طرابلس ثم يدخل حدود سلطنة البولالا فى أراضى فترى ثم كانم ثم منها إلى مملكة البرنو وهو الطريق الجرمتنى القديم الذى استخدم لربط تلك المدينة مع وسط القارة ثم بعد ذلك يتجه غربا إلى تاد مكة وبرنى وجاو وتمبكتو ثم غربا إلى دولة سنغاى[٢] وقد قام الجرماتين سكان غدامسى بدور كبير فى حركة الربط والصلة بين طرابلس وسكان فترى وكانم وبين بقية المناطق الجنوبية والغربية من القارة الأفريقية والذين كانت تجارتهم مع سكان الصحراء الغربية والذين ربطتهم علاقات مع الطوارق وكانت لهم وكالات تجارية فى مدن فترى وكانم والهوسا وسافروا إلى واحة توات وإلى مدينة تمبكتو[٣] .

لقد كان الطريق الذى يربط سلطنة البولالا فى فترى وكانم بمدينة طرابلس على ساحل البحر الأبيض المتوسط يتجه جنوبا إلى منطقة فزان التى كانت عبارة عن مجموعة من الواحات ذات الإتصال السهل بسواحل البحر المتوسط وجنوبا بمنطقة بحيرة فترى وتشاد وأشهر هذه الواحات التى ظهرت فى هذه المنطقة هى واحة زويلة وقد ظهرت زويلة كمركز تجارى وكمعبر هام من معابر الطرق الصحراوية منذ القرن الرابع الميلادى ، إلا أن جرمه كانت أكثر شهرة منها حتى دخول الإسلام إلى تلك المنطقة ومن ثم بدأت زويلة مكانتها مع بداية الفتح الإسلامى فصارت قاعدة بلاد فزان وقد كانت أقرب الأماكن شمالا إلى سلطنة البولالا حول فترى[٤] ولقد لعبت دورا هاما فى صلة الربط مع البولالا ومنها غربا وجنوبا ومن ثم بدأ دورها يتعاظم وتأخذ مكانتها بين مدن الصحراء الكبرى الهامة . ومنطقة فزان التى اشهرها واحة زويلة وقد امتد إليها وبالجنوب منها على وجه التحديد نفوذ البولالا وهى منطقة كبيرة تقوم فيها قصور ضخمة وقرى كبيرة وكلها مأهولة باناس أغنياء وفيها حدائق النخيل وهى بالقرب من أغاديس وعلى حدود صحراء ليبيا التى تتاخم مصر وكانت

---

(1) Cooley, W.E : The Negro Land of the Arabs .P . 8 .

(٢) نبيلة حسن محمد : انتشار الإسلام فى غرب أفريقيا (رسالة ماجستير غير منشورة) ص١١٤ .

(3) Cooley, Opcit . P 11 .

(٤) ابن سعيد : بسط الأرض فى الطول والعرض .ص٦٢ .

حدود مصر هى نهاية حدود سلطنة البولالا شمالا شرقا ، وهى على مسافة ستين يوما على طريق القاهرة ولايوجد بين فزان ومصر مناطق مسكونة سوى واحة أو جلة الواقعة فى صحراء ليبيا[1] .

ومع كل هذا فإن هذا الطريق كانت توجد به مناطق كبيرة خالية من الماء بحيث لاتستطيع القوافل الثقيلة الحّمل عبوره إلا في خطورة بالغة وبالرغم من ذلك فإن تجربة الزمن أثبتت أنها أهملت لعدم وجود الآبار أو المراعى على هذا الطريق وغيره من الطرق الثلاث التى كانت تربط سلطنة البولالا بالعالم الخارجي ، فإن طريق طرابلس – فزان كوار – فترى ، كان يوجد به الضمان الأكبر حيث الماء والكلا والمراعى التى تستوجب اتخاذ القوافل لها كمحطات على الطريق[2]ولا يوجد أدنى شك فى أنه أسهل طرق القوافل عبر الصحراء ، وكان استعماله دائمابالرغم من أن طريق كوار فزان كان يحمل الكثير من المواد من الشمال إلى الجنوب الا أنه كان طريق يستخدم للأغراض الأقل أهمية من حيث الإستيراد والتصدير إلى فترى وكانم ، ولقد كانت أغاديس التى يمر بها طريق فزان كوار فترى كانم . من أهم مستودعات للذهب للتجارة فيما بين طريق تمبكتو وطرابلس حيث تمثل أراضى البولالا منطقة ربط وصلة فى هذا الطريق الطويل الذى يأخذ اتجاه غربا بعد عبور أراضى كانم – فترى ولكن قضاء المغاربة (السلطان المنصور السعدى عام ١٥٩١) على إمبراطورية سنغاى حيث مصدر الذهب أدى إلى زوال هذه الأهمية بعض الشيء كما أن قضاء السلطان إدريس الوما سلطان برنو على قوة البولالا العسكرية عام ١٥٩٣م قد وضع حدا لسيطرة البولالا على هذه الطرق[3]

وإن استمرت مستودعا للملح الذى كان يستخرج من واحة بلما بين كوار والهوسا حيث كانت بلما تقع داخل حدود سلطنة البولالا ، وساعدها على ذلك أن أراضيها غنية بالمراعى التى يمكن أن تعول آلاف الرؤوس من الإبل والتى كانت عماد هذه التجارة ، كما سافر تجار طرابلس وفزان عبر هذا الطريق سالكين داخل أراضى البولالا إلى امارات الهوسا وبرنو وبدورهم ربما اتجهوا غربا إلى جاو ثم تمبكتو وتجاروا مع بلاد داخل القارة ، وظهر تجار تشاد وتجار غدامس وفزان فى كل بلاد السودان فى فترى وكانم وبرنو وامارات الهوسا وتمبكتو غربا ولقد كان تجار الشمال يستخدمون الطريق إلى فزان من بلاد تونس ومصر ومنها يذهبون إلى أقاليم الصحراء وبلاد سنغاى والهوسا . ومنتجات تلك الأقاليم كانت

---

(١) نبيلة حسن محمد : مرجع سابق ص١١٥ .
(2) Bovill, E . W : Caravans of the old Shara . P 235 .
(3) urvay, y : Enpire du Bornou . P. 112.

تصب فى فزان ومنها الذهب الكثير الذى كان عبارة عن تراب الذهب الذى يطلق عليه التبر إضافة إلى غيرها من المنتجات الأخرى(١).

ولقد لعب هذا الطريق الذى يبدأ من طرابلس مار بواحة فزان ثم يتجه جنوبا إلى كوار ثم يسلك اتجاهه داخل سلطنة البولالا وينتهى فى بلاد برنو داخل نيجيريا ثم بعد ذلك يأخذ بعداً آخر غربا إلى بلاد الهوسا وكيبى وسنغاى ثم المراكز التجارية فى تمبكتو وجنى جاو دوراً هاما فى سلسلة المعابر الصحراوية التى استخدمتها القوافل والتى زادت من طبيعة العلاقات بين شمال القارة وبين غربها(٢) .

وعلى الرغم من أن طريق فزان- كوار- فترى- كانم ، له شهرته إلا أنه لم يحرز شهرة ومكانة عالمية كطريق تمبكتو- تغازى أو طريق تمبكو- توات ، إلا أنه كان الطريق الرئيسى الذى يصل سلطنة البولالا بالعالم الخارجى شمالا وشمالا شرقا ، بالإضافة إلى كونه أنه يعد من أكثر الطرق الصحراوية استعمالا وأكثرها مباشرة مع سلطنة فترى- كانم ومن هنا ذاع صيته وتحكمت فى هذا الطريق وغيرها من الطرق الأخرى قبيلة التيبو التى تسكن شمال فترى غربا ولقد ظل هذا الطريق مفضلا لدى التجار العرب الذين استمروا فى استخدامه(٣) وذلك لأنه كان يمر من واحة كوار إلى سائر بلاد السودان وقد استخدمه غير العرب أيضا من أبناء الطوارق وسكان السودان الأوسط والسودان الغربى والذين فضلوه عن طريق أير- غدامس ولكن تلك الأهمية اضمحلت مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادى نظرا لسوء العلاقات بين طرابلس وبرنو بعد سقوط سلطنة البولالا وعودة كانم لبرنو- والذى أدى الى تهديد الأتراك الذين كانوا قد سيطروا على ليبيا وهذا الطريق بغزو برنو ، لذلك تحولت الحركة منه إلى الجنوب من مرزق إلى طريق غدامس . اير(٤) .

ولقد كانت تخرج من طرابلس عدة طرق تمر بواحة مرزق فى فزان تاركه زويلة وتعبر الجانب الشمالى من جبال (تبستى إلى اقليم بحيرة تشاد) ومنه تتحرك شرقا وغربا داخل أراضى كانم- برنو ثم تسير إلى تمبكتو إلى محطة النهاية لهذه الطرق بالإضافة إلى أنه من طرابلس فزان كانت تتجمع طرق أخرى تسير هى الأخرى إلى تمبكتو(٥) .

كذلك لعبت برقة أيضا دورا هاما فى حركة مرور القوافل منها إلى الجنوب وقامت

---

(1) Nachtigal, G : shara and sudan . P 118.

(٢) على أبو بكر : الثقافة العربية فى نيجيريا ص٣٤ .

(٣) الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : ص٤٧ .

(٤) محمد عبد الغنى سعودى : الإتصالات العربية الأفريقية فى العصور القديمة (فصل) ص١٩ .

(٥) محمد عبد الفتاح إبراهيم : أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا . ص٧٢

بدور كبير فى نقل التجارة مع ماذكره ابن حوقل بقوله لقد ساهمت برقه فى الحركة التجارية كما ساهمت طرابلس فى ذلك الميدان إلا أن شهرة طرابلس فى ذلك المجال كانت أكثر . ولقد كانت معابر الصحراء بمثابة مغناطيس جذب إلى بلاد المغرب (ليبيا) كتجار أوربا وملؤا الموانئ كما ملؤا طرق الساحل المغربى من طرابلس شرقا حتى اغادير فى المغرب الأقصى غربا ، ولكن بالرغم من كل هذه الطرق التى كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب والتى عرفت منذ القدم إلا أنه كانت تأتى عليها ظروف تتغير من وقت لآخر وذلك لأن استخدام طرق أقصر وأسهل فى العبور وربما تهجر طرق أخرى بسبب قلة المرعى أو بسبب قلة الآبار أو بسبب اختلافات سياسية فى الصحراء ولكن فى كل الطرق القديمة فإنه كانت هناك مشقة فى العثور على الماء والمرعى حيث كان يتوقع العثور على مصادر للمياة عبر الطريق[1] وذلك فى الطريق الذى كان يتجه إلى غدامس فى صحراء طرابلس ثم يدخل منها إلى تادمكة وغيرها من بلاد السودان الأوسط والغربى وأيضا فزان وزويلة التى وصفها أحد كتاب العرب بأنها أول حد بلاد السودان فى صحراء طرابلس الشرقية والتى يدخل منها مباشرة إلى فترى وكانم وبرنو ثم غربا إلى جاو وتمبكتو ، ولقد كان ذلك الطريق قبل أن يصل إلى جاو يمر بمدينة تادمكة والتى تقع شمال شرق العاصمة جاو وتبعد عنها بحوالى تسعة مراحل بين كل مرحلة استراحة وقد ساهمت منذ القرن السابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) فى تجارة الصحراء لوقوعها على نهاية الطريق الأوسط الذى يعبر الصحراء الكبرى فأصبحت النهاية الرئيسية لهذا الطريق وقامت تادمكة بدور كبير وتردد عليها التجار وصارت مملكة منذ القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى ، وأصبحت منذ القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، أحسن من كوكو وقد توسعت جنوبا ، بالرغم من وجود مملكة البولالا (جوجو) جاجو الجنوبية إلى جوارها[2] ويبدوا أن العلاقات بين سلطنة البولالا (جاجو) ومملكة تادمكة قد كانت فى أحسن صورة لها والا لما ترك البولالا تادمكة تنعم بالاستقلال وهذا الرخاء دون وجود روابط وصلات وعلاقة قائمة بين الطرفين ، ومن هنا صارت علاقاتها التجارية منتظمة عبر الصحراء إلى ورجلان وطرابلس غدامس والقيروان حيث كانت ملتقى عدة طرق ، ويبدو أن انتقـال أسرة سنغـاى الحاكمة إلى الشمال منذ (القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) واكتمال قيام مملكة كانم فى الشرق قد حدد وجود تادمكة كمملكة مستقلة وقد ذكر ابن سعيد ارتباطات تادمكة عبر الصحراء ولكنه جعلها تابعة لدولة كانم فى فترة سيطرة البولالا على ذلك الإقليم وضمه لسلطنة فترى[3] .

(1) Bovill, E . W . : opcit P . P . 132- 133.

(٢) أحمد الياس حسين : الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى . ص٢٢٥ .

(٣) ابن سعيد : بسط الأرض فى الطول والعرض . ص٨٣ .

وفد كان ظهور تكدا وظهور مناجم النحاس بها وحولها فى أماكن كثيرة قد حول اتجاه سير القوافل إلى تكدا لكنه لم يؤدى إلى القضاء التام على تادمكة إذ أنها ظلت سوقا هاما فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى ، ولقد كانت هناك ظروف اضطرارية تجبر على تغير الطريق مثلما حدث فى تادمكة وتكدا لأنه لم تكن الحروب أو السرقات لترغم القوافل التجارية والمسافرين عليها عبر تلك المسالك بصفة دائمة على التوقف مرات وهناك احتمال بأن يكون طريق غدامس إير أقل قدما عن طريق تعازة وكلها تؤدى إلى تمبكتو وذلك لأن الطريق الأول يمر عبر طرق صخرية تبرهن مساراتها على قدمه وعلى ثقل الحركة التى دارت فوقه وبعد أن طريقها لم يختلف فيما بعد غدامس وغات[١] ولقد كان الطوارق هم المسيطرون سيطرة تامة على الطريق فيما بين غدامس واير حيث تمر أسوء طرق الصحراء فى العالم حيث تقع منطقة الأحجار فى منتصف الطرق إلى ولكن طريق توات – اير Air الذى اخترقه رصيف الأحجار استطاع أن يصل بذلك الطريق إلى كاتسينا وزاربا وكانو فى بلاد الهوسا غربا ثم إلى جاو تمبكتو وجنى[٢] ومع نهاية الحديث عن ذلك الطريق الذى كان يمر عبر أراضى فترى كانم إلى الشمال ثم يتجه إلى الشمال الشرقى إلى مصر وكذلك يصل فترى بالأماكن الشرقية المجاورة كواداى مثلا ، فإن ذلك الطريق كان يلعب دورا هاما فى حركة العلاقات التجارية الإقتصادية والسياسية والثقافية بين الشمال الأفريقى ليبيا ومصر وغيرها من البلدان المجاورة وبين فترى كانم وبقية بلاد السودان الأوسط والغربى حقيقة لقد كانت فترى – كانم فى تلك العصور (القرن ١٤م – ١٦م) ملتقى عدة طرق صحراوية للتجارة الدولية وتجارة الصحراء فى السودان الغربى والأوسط مما عوضها عن الثروات التى كانت تفتقدها مثل الذهب وغيره والتى عرفت به الدول المعاصرة والمجاورة مثل غانا وسنغاى ومالى وغيرها من الدول التى كانت بلادها تجود بمناجم الذهب لاستغلالها والسيطرة عليها كما فعلت غانا ومالى وسنغاى فى استقلال هذه المناجم لزيادة ثروتها ، كما أنه لم تكن توجد بها ملاحات استخراج الملح والذى كان يحتاج إليه بشدة فى بلاد السودان الأوسط والغربى ، وهى المصادر التى قامت عليها شهرة واقتصاد هذه الدول ، وقد عرفت عدة طرق قديمة وأصبحت معروفة ومشهورة وقاما بربط جرما بفترى وتشاد[٣] وهو الطريق السابق الإشارة إليه وطريق طرابلس فترى – تشاد[٤] وقد ساعد على ابستخدام ذلك الطريق فى يسر وسهولة وجود العديد من الواحات الكثيرة والمنتشرة من الشمال إلى الجنوب وعلى أبعاد

---

(1) cooley, W .d : opcit . P . 7 .
(2) Bovill, E . W . : opcit . P 298 .
(٣، ٤) البرغونى : التاريخ الليبى القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامى . ص٢٥٩ ، ٣٢٠ .

ومسافات متقاربة ما بين فزان وفترى وتشاد مع وجود الكلاء فى طريق القوافل ، بل هناك طريق آخر يربط بين فترى - كانم والعالم الخارجى مثل الطريق الذى يبدأ من عجيلة فى طرابلس ويمر عبر مرزوق كوار وقد أصبحت هذه الطرق أكثر سهولة مما اتاح اكتشاف طرق جديدة وأقصر بسبب استخدام الجمال وقدرتها على التحمل[١] .

ولقد أشار العديد من كتاب الغرب لما فى نفوسهم فى إساءة العلاقات بين العرب وأخوانهم الأفارقة الزنوج إلى أن أهم السلع التى كانت تحمل على هذه الطرق التى تعبر فترى كانم وتمر بها قد كانت كثيرة العدد ومتنوعة ومختلفة ولكن فترى - كانم اعتمدت فى معظم تجارتها وفى الأساس على تصدير الرقيق من الجنوب إلى أسواق ساحل بلاد المغرب العربى[٢] وكان اليعقوبى فى القرن التاسع الميلادى الثالث الهجرى ، قد تحدث عن نشاط بربر الأباضية الذين كانوا من مسلمى زويلة وكيف كانوا يتجارون فى فزان وكوار مع بلاد فترى كانم وكيف كانوا على اتصال وثيق بها[٣] .

ولقد كان الملح سلعة أساسية ، تمثل العمود الفقرى فى حركة التجارة الداخلية بين أقطار السودان الأوسط والغربى حيث كان يتم الحصول عليه من ملاحات فى السودان الغربى مما كان يجعل فترى كانم فى أمس الحاجة إلى تلك السلعة الهامة والاساسية فى حياة ذلك الشعب حيث كانت تلك المادة ضرورية فى حياة البشر التى لا يمكن الإستغناء عنها وهى غير متوافرة فى فترى كانم وهى تكاد تخلو منها فى بلاد الزغاوة وغيرها من بلاد الإمبراطورية الواسعة التى تمتد من واداى شرقا إلى أراضى برنو غربا فكان الملح يرد إليهم ضمن ما يرد من بلاد أخرى من بلاد أوليل عند مصب نهر السنغال ، هذا بالإضافة إلى مصادر الملاحات الأخرى التى كانت المصدر الهام لفترى - كانم والتى كان يتم الحصول عليها من ملاحات كوار الموجودة بين أيروتبسيتى فى الشمال من بلما التى كانت تقع داخل حدود فترى ، وقد آلت هذه الملاحات إلى سكان فترى وكانم بعد أن قاموا بشراءها من الطوارق وكانت قوافل الطوارق والتيبو فى شمال فترى تقوم بتسويق الملح فى تلك الأقاليم[٤] .

وكان السلطان عبد الجليل جبل سيكومامى ، مؤسس أسرة البولالا قد شعر بالحاجة

---

(1) selig man, G . G : Egypt and Negro sudan . P . 67 .

(2) crowder, M : The story of Nigeria . P 34 .

(3) Trimingham, J . s : A history of Islam in west Africa P . 32 .

(٤) ريمون فيروان : الصحراء الكبرى ، ص٤١٦ .

إلى أهمية السيطرة على ملاحات بلما ومن ثم قام بتأمين الطرق التجارية المؤدية إلى الشمال وقام أيضا بعدة حروب ضد الطوارق والتيبو وضيق الخناق عليهم ووصل فى حملاته شمالا إلى مدينة بلما وعسكر هناك عدة أيام[1] كما أنه قام بفتح الطريق بين بلاده (فترى - كانم وطرابلس) وقضى على شوكة القبائل التى كانت تعوق حركة التجارة ودورها إلى بلاده وانتصر على تلك القبائل[2] .

ولقد أدت زيادة الطلب على الملح وشدة الحاجة إليه بأن صارت قيمته أعلى من الذهب وكثيرا ما كانت بعض القبائل تقوم بتبادله مع السكان المحليين بأن تقدم ما قيمته ملحا بوزنه ذهبا ولقد كانت حاجة سكان تلك المناطق عظيمة ذلك لأن حاجة السودانيين إلى الملح عظيمة لأنه لا قوام لهم إلا به وقد بلغ سعر الحمل منه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار للحمل الواحد[3] ومن هنا فإنه يمكن القول بعد أن احتل الملح مكانة فريدة فى التجارة وأصبح له وزن خاص كسلعة ثمينة فى المقدمة وصار بمثابة العملة الرائدة والمتعارف عليها بين سكان تلك الأقاليم فإنهم أصبحوا يتعاملون به فى حياتهم اليومية والتجارة العادية وقد ذكر ابن بطوطة فى رحلته قائلا أن سكان تلك المناطق يتعارفون على الملح كما يتعارفون على الذهب والفضة .

وأنهم يقومون بتقطيع الملح إلى قطع ويتبايعون به ولذا فقد كانت قيمته لها مكانة رقيقة وعالية ولقد كان المسافر إلى تلك الجهات يستطيع أن يستغنى عن أشياء كثيرة لا يحملها معه إلا أنه من الضرورى أن يكون معه الملح وقطع من الأشياء الهامة التى لابد أن يحملها معه نظرا لعدم الإستغناء عنها[4] .

ولقد كان التعامل يتم أيضا بالإضافة إلى قطع الملح والحرز يتم بقطع القماش التى كانت تصنع فى منطقة فترى حيث كان القماش من وسائل المعاملات السائدة فى بلاد الكانم ذلك القماش الذى كان يصنع بالزعفران كما سبق الإشارة إلى ذلك والذى كان ينسج عندهم فى شكل ثياب ، طول كل ثوب منها لايزيد عادة عن عشرة أذرع وكان التعامل بها من ربع ذراع فصاعدا كذلك استخدم النحاس كوسيلة للتعامل بالإضافة إلى الورق والودع والخرز ، لكن كل هذه الأشياء كانت قيمتها تقدر بسعر ذلك القماش (دندى) وهذا القماش هو أول ما ذكر عن التعامل فى فترى وكانم وبرنو بالإضافة إلى الودع

---

(1) Palmer, R .: sudanese memoire . p. 47 .
(2) Barth H : opcit , P 590 .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص١٠١ .

(٤) ابن بطوطة : نفس المصدر : ص٦٧٤ .

بأنواعه المختلفة[١] .

كذلك بالإضافة إلى كل هذه الأنواع فإن هناك سلعة أخرى لعبت دورا فى الحياة العامة بل والإقتصادية للبلاد ومنها الشب ذلك المورد الطبيعى الذى كان يوجد داخل أراضى سلطنة البولالا حيث كان الشب شائع الاستعمال وبكثرا وجوده فى بلما وكوار وكان الشب من أهم ما يستخرج حول بحيرة تشاد وفترى حيث كان رأسمال هذه البلاد فكانوا يتجولون به فى منطقة شرق السلطنة وذلك حتى يصلوا بذلك الشب إلى مصر ومن ثم يتاجرون به أيضا فى بلاد واسعة مثل بلاد المغرب الأقصى [٢] .

ولقد وصلت سمعة الشب التشادى سمعة عظيمة فى بلاد كثيرة من أنحاء العالم الإسلامى سواء بلاد الشرق الإسلامى بأقطاره المختلفة أو بلاد المغرب العربى وذلك سبب جودة نوعه وعظم كمياته المصدرة إلى تلك البلاد . كما أن عائداته كانت تسد جزء من احتياجات البلاد من السلع الأخرى التى تحتاج إليها وعلى هذا فإن تلك الصورة عن الحياة العامة فى سلطنة البلالا توضح الدليل القاطع على أن تلك السلطنة قد مارست حياتها الطبيعية اليومية من خلال استغلال الطاقات الموجودة داخل أراضيها والعمل على اسغلالها الاستغلال الأمثل وذلك لكى تسد حاجات أبناء شعبها فيما تحتاج إليه وكذلك استيراد ما تحتاج إليه من منتجات أخرى لم تكن متوفرة فى أراضيها وكانت الضرورة القصوى تحتم استيرادها لاسيما أن الطبقات العليا وثراة القوم كانوا يقبلون على شراء هذه الواردات التى كانت ترد إلى سلطنة البولالا من الأقطار المجاورة .

****

(1) Hodgkin , T : Nigerian Perspectives . P 77 .

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ص٢٣٢ .

الباب الخامس

الحياة العلمية والثقافية والفكرية



في القرن السادس عشر الميلادى كتب الحسن الوزان (ليو الأفريقى) فى كتابة وصف أفريقيا عن سلطنة البولالا التى أطلق عليها هو اسم مملكة جاجو ، بأن هذه المملكة لا توجد بها حضارة ولا معرفة بالآداب ولا حكومة وأهل هذه البلاد أغبياء ولا سيما الذين يعيشون فى الجبال ، حيث كانت تلك السلطنة تتمركز على نهر ياو Yoe أكبر الأنهار التى تجرى فى تلك السلطنة وتصب فى بحيرة فترى[1] وهم يمشون عراة فى الصيف دون أى لباس سوى نوع من سروال قصير من جلد يستر عوراتهم والبيوت هى اخطاط من أغصان تحترق لمجرد هبوب أدنى رياح وهم يربون قطعانا كبيرة من الأغنام والأبقار .

هذا ما ذكره الحسن الوزان عند حديثه عن سلطنة البولالا فى القرن السادس عشر أثناء زيارته إلى تلك المناطق التى وصفها فى كتابه وصف أفريقيا وقد لا يكون قد وصل إلى تلك المناطق وربما يكون قد استقى معلوماته من مصادر غير موثوق بها ، ذلك لأنه أثناء قيام الحسن الوزان بزيارته لأفريقيا فإن سلطنة البولالا كانت لا تزال تسيطر على كانم بعد طرد الكانمبو وسلاطينهم منها ولم يتم اعادتها نهائيا من أيدى البولالا إلا فى عام ١٥٩٣م[2] على يد السلطان إدريس الوما فى حين زيارة الحسن الوزان للقارة الأفريقية وتأليفه لكتابه كان عام ١٥٢٦م .

وتقول أن تلك السلطنة ظهرت أول ما ظهرت كسلطنة إسلامية قام بها احفاد السلطان الأكبر محمد الكبير اليمانى الذى يعتبر مؤسس هذه الأسرة والذى قدم إلى تلك الانحاء بعد عبوره البحر الأحمر واستقراره فى تلك الأنحاء ودعوته للدين الإسلامى وفرصة السيادة فى تلك المنطقة[3] لكن انتشار الإسلام على نطاق واسع بين شعب البولالا قد كانت بدايته مع قدوم القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) عندما أسلموا وحمل سلطانهم لقب ملك الناس وادعو الأصل العربى وفى ذلك أن هؤلاء البولالا الذين يعشون فى المنطقة التى تقع بين يركو وباجرمى أنهم ينحدرون من قبيلة الإزد Azd العربية[4] كما أن مملكتهم امتدت على مسافات واسعة فقد كانت تمتد شرقا مع النوبة وتلتصق فى الجنوب مع صحراء معينة متعرجة مع النيل كما اتحد شمالا بمصر أى أنه كانت لها حدود مباشرة شمالا شرقا مع مصر[5] بالإضافة إلى حدودها الشمالية كانت تصل حتى بلما بالقرب من كوار وفزان

---

(١) الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميدة . ص٥٥٦ .
(2) Ahmed ibn Farthua : Opcit . P 54 .
(3) Palmer, H. Sudanse Memoires . P 36 .
(4) Macmochaal, A . H : AHistory of the Arabes in the sudan vol 2 .P . 185.
(5) Palmer, R : opcit . P . 146 .

حيث زويلة ومنها امتداد طريق طرابلس فى الإتجاه جنوبا حيث يمر بأراضى سلطنة البولالا ومن هنا فإنه مما لا شك فيه أن تلك الصورة التى رسمها الحسن الوزان للحياة العلمية والثقافية والفكرية للحياة فى سلطنة البولالا قد لا تكون صحيحة مائة فى المائة حيث يحدثنا بأنه لاتوجد بها حضارة ولا آداب ولا معرفة بالعلوم الإسلامية ، لكن نقول أنه كيف تكون دولة بهذه الصورة مجاورة لمصر وطرابلس وهى أقرب السلطانات الإسلامية مجاورة لمصر وطرابلس فى السودان الأوسط وكيف تكون سلطنات أخرى فى السودان الأوسط والسودان الغربى قد وصلت إلى مستوى فكرى وعلمى وثقافى كغانا ومالى وسنغاى وبرنو وكانم وامارات الهوسا واستطاعت أن تظهر كمنارات علمية فى تلك الأنحاء ولا يوجد أدنى مرحلة من مراحل الثقافة الإسلامية والحضارة العربية فى تلك الأنحاء .

لكن نجد هنا حامد مصطفى عمار فى رسالته الماجستير المقدمة منه لكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٤٥م يذكر لنا أن هذه الدولة التى كونها البولالا امتدت واتسعت وازدادت مواردها وأنهم اداروا أمورها من مقر حكمهم الأول حول بحيرة فترى ، وقد سعى السلطان عبد الجليل الذى حكم فى الفترة (٧٦٧- ٨١٤ هـ / ١٣٦٥- ١٤١١م) إلى الحصول على تأيد مصر بشرعية حكمه للكانم التى انتزعها من ابناء عمومته حكام تلك الأقاليم وطردهم إلى إقليم برنو(١) .

ولقد كان الدافع للسلطان عبد الجليل الاتصال بمصر ، ذلك لأن مصر كان لها نفوذ قوى فى السودان الأوسط ، وأن نفوذها كان معترفا به فى تلك الجهات فى آواخر القرن الرابع عشر الميلادى وذلك لأن نفوذ مصر كان مستمدا من وجود الخليفة العباسى بها واتخاذ القاهرة مقرا للخلافة العباسية بعد سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ وقامت الخلافة فى مصر عام ٦٥٩هـ ولكن هذه المحاولة للحصول على ذلك الإعتراف الرسمى والشرعى لحكمهم من السلطنة المملوكية فى مصر لم تظفر بشىء حيث خاب مسعاهم ، هذا بالإضافة إلى أن الخلفاء العباسيين فى القاهرة كانت لهم مكانة سامية فى نفوس كثيرين من الحكام المسلمين على مستوى العالم الإسلامى أجمع ذلك لأن بعض الأمراء المسلمين وجدوا فى الخليفة العباسى ضالتهم المنشودة لمنحهم تفويضا شرعيا فى الحكم فى ولايتهم التى استولوا عليها بالخديعة أو القوة(٢).

لكن الحسن الوزان يعود فيحدث عن تلك السلطنة بعد وفاة السلطان عبد الجليل وتولى ابنه محمد علوان فنجد أنه يقول لقد خلف السلطان بعد موت أبيه ولم يكن ابنه هذا أقل

---

(١) حامد عمار : علاقة مصر بالبلاد الأفريقية فى العصور الوسطى ص٥٤ .

(٢) جمال سرور : دولة بنى فلاوون فى مصر ص٩٧-١٠٠ .

بسالة من والده ولا أقل أقداما منه وظل يمارس السلطة فترة طويلة وقد استطاع أن يوسع رقعة أملاكه كثيرا ويقول أيضا أن ذلك السلطان استطاع بفضل هداياه ومجاملاته استطاع أن يكسب صداقة سلطان القاهرة ورعايته ، وقام السلطان بارسال اسلحة وأقمشة وخيول له وكان يدفع للتجار ضعف أثمانها لكى يظهر أمام الرعية- التجار المصريين بأنه كريما حتى أن تجار مصر لا يذهبون لأبعد من بلاطه وكان الكثير من فقهاء القاهرة (يقصد رجال دينها) يأتون لمقابلته حاملين إليه بعض الهدايا الجميلة والنادرة ويقوم بدفع ضعف أثمانها وكان لا يخرج أحد من عنده إلا وهو مشمول ومغمور بفضله وفرح بما ناله من عطاء وكان يعامل العلماء ورجال الدين والناس المثقفين ولا سيما الذين ينتسبون لآل البيت بكثير من مظاهر الإكرام – ويضيق الحسن الوزان قائلا أنه كان حاضرا عندما كان يفد عليه العلماء ورجال الدين[١] .

ومن هنا فإنه كانت هناك حياة علمية وفكرية وثقافية لكن ربما لا تصل إلى درجة ما وصلت إليه تلك الحياة فى سنغاى أو مالى أو غيرها من سلطانات السودان الغربى حيث نجد الحسن الوزان يذكر بنفسه أن السلطان يستقبل رجال الدين والعلماء المثقفين ويعاملهم معاملة طيبة لاسيما آل البيت ومن هنا فقد كان الإسلام منتشرا بين هؤلاء الأقوام وعلى هذا فإن الإسلام قد ادخل فى ركابه الحضارة لهذه الأسرة الحاكمة وأن إدخال هذا الدين الحنيف هو الذى مكن لها من السيطرة على البلاد والوثوب على كرسى وعرش الحكم ورواياتهم تؤكد أن الإسلام قد وصل إلى تلك البلاد على يد جد هذه الأسرة محمد محمد الكبير اليمانى الذى أدخل الإسلام إلى تلك البلاد[٢] وعلى هذا فإن دخول الإسلام فى ظل الأسرة الحاكمة فى آواخر القرن الثانى عشر الميلادى ثم توطده فى القرن الثالث عشر الميلادى وانتشاره على نطاق واسع بين أهل البلاد إيذانا بإنطلاقهم نحو توسيع رقعة سلطتهم شرقا وغربا وعلى هذا فقد كان المذهب السنى المالكى هو المذهب السائد فى سلطنة البولالا وفى بلاد السودان الأوسط والغربى بضعة عامة ، غير أن بعض القرى الشمالية حيث القرب من فزان وزويلة وكوار وبلما كانت تضم بعض رجال المذهب الآباضى أحد مذاهب الخوارج الذين وهؤلاء كانوا غالبا من المغاربه المقيمين فى تلك البلاد (كما هو فى شأن قرية زاغونى التى يقيم فيها بعض فقهاء الخوارج الأباضية[٣] والذين كانوا يتمركزون فى فزان وكوار .

---

(١) الحسن الوزان : نفس المصدر ص ٥٥٦ .

(٢) حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا . ص٢٥٦ .

(3) Triming ham, J . s : A History of Islam in west Africa P . 32 .

وقد بلغت هذه السلطنة أوج قوتها وأقصى اتساع لها فى عهد السلطان عبد الجليل (جل سيكوماسى) الذى استطاع أن يقهر حكام كانم فى الغرب وأن يطردهم وأن يقهر الشعوب الوثنية فى الجنوب وأن يبسط نفوذ بلاده شمالا فى بلما وهو يشبه فى وجوه كثيرة للعديد من السلاطين الأقوياء الذين ظهروا فى منطقة السودان الأوسط والغربى(١) .

وعلى الرغم من طبيعة البولالا العسكرية البدوية إلا أن سلطتهم قد بدأت تكسب أهمية ومركزا بارزا فى السودان الأوسط والغربى منذ القرن الرابع عشر ومن هنا فقد بدأت تؤدى دورا ثقافيا ودينيا هاما وذلك بعد سيطرتها على كانم ، حيث أصبحت منطقة بحيرة تشاد وفترى مصدر من مصادر الإشعاع للحضارة الإسلامية فى السودان الأوسط وذلك بفضل موقعها خاصة وأن بحيرة فترى تقع فى وسط منطقة حساسة فى الإتصالات الداخلية فى قلب القارة الأفريقية وكذلك إتصالها بمراكز الثقافة الإسلامية فى مصر أو طرابلس والتى استطاعت أن تقيم معها علاقات ثقافية وطيدة كما تمكنت من هضم واستيعاب كثيرا من معالم الحضارة الإسلامية العربية ومن هنا كان لهذه الحضارة مآثرها فى تلك المناطق(٢) .

ولقد كان دور هذه الدول (مصر وطرابلس) ظاهرا بل مؤثرا وفعالا فى تلك الأنحاء ونظرا لأن إتصال فترى- كانم بمصر وطرابلس وفزان وكوار وزويلة لم تكن هناك فواصل طبيعية تعوق ذلك الإتصال ، كما أن فزان لاتبعد كثيرا عن بحيرة تشاد ، فأقليم فزان بطرابلس لا يبعد عن بلاد كانم أكثر من مسيرة إربعين يوما ، حيث كانت فزان مكان مقصودا وموطنا للعلماء ومركز لتعليم اللغة العربية يفد لها الناس من أنحاء بعيدة فى السودان الأوسط والشرقى والغربى(٣) .

ومن هنا فأنه يحق لنا أن نتحدث بإسهاب عن الحياة العلمية والفكرية والثقافية فى فترى- كانم حيث سيطرت سلطنة البولالا ، وإن كانت المصادر العربية والأجنبية لم تشر إلى ذلك إلا إشارة بسيطة نظرا لما عرف عن البولالا وبدواتهم ونشاطهم العسكرى والحربى ، لكن إشارة الحسن الوزان (ليو الأفريقى) عن تقريب السلطان للعلماء ورجال الدين والمثقفين واحترام العلماء لاسيما كل من ينتسب إلى آل البيت حيث كان حاضراً ذلك المجلس بنفسه فإن هذا يعطى الدليل القوى أنه كانت هناك حياة علمية وثقافية وحضارية وإلا اين الدور الذى لعبه هولاء فى آثر الحركة العلمية والواضح لأن هذه شهادة شاهد عيان وأن كان لم يصل بدرجة الثقافة والعلم مثل ما شاهده فى تمبكتو(٤) ولقد اثار بالمر

---

(1) Triming ham, ibld . P 113 .
(2) Triming ham, J . s : opcit : P . 104 .

(٣) حسن محمود : نفس المرجع ص٢١٠ .

(٤) الحسن الوزان : نفس المصدر ص٥٣٩ .

Palmer إلى وجود مظاهر حضارة إسلامية فى منطقة جنوب بحيرة تشاد حيث سيطرت فترى (سلطنة البولالا) على تلك المنطقة فترة تزيد عن قرنين من الزمان وبذلك ظهر تاريخ تلك المنطقة حيث شعب الكانم والبرنو [١] .

ولقد أدى انتشار العقيدة الإسلامية بين الشعب الفترى والكانمبو إلى انتشار اللغة العربية فى سلطنة البولالا حيث أنه كلما سارت العقيدة الإسلامية سارت معها وإلى جانبها لغة القرآن الكريم ، ذلك لأنه فى المعروف أن اللغة العربية كانت هى لغة التعليم ولغة الدولة فى المراسلات الدولية ولقد أشار الحسن الوزان إلى مراسلات تمت بين السلطان عبد الجليل والخليفة العباسى فى القاهرة ولا شك أن تلك المراسلات التى لم يحفظها لنا ديوان الإنشاء المصرى مثلما حفظ لنا رسالة الماى عثمان إدريس إلى السلطان الظاهر برقوق ، إلا أن اللغة العربية كانت لغة المراسلات الدولية ليس فقط عند الشعب الفترى ولكن عند جميع الدول الإسلامية التى قامت فى منطقة السودان الأوسط والسودان الغربى[٢] .

وعلى هذا فقد أخذت أفريقيا السوداء بشخصيتها وكيانها عندما قامت فيها مراكز إسلامية كبيرة فى السودان الأوسط مثل نجيمى فى كانم ، ماسبو ، بالاك ، وكذلك مدينة كاجا ، ومدينة يرى أو مدينة نجازار جامو ، ومدينة ناتيجام ، كذلك مدينة كاسودا

Kasuda ، كاجوستى Kagusti ، وباجرمى ، بابااليا وغيرها من المدن التى اشتهرت بقيام رجال الدين بتحفيظ القرآن الكريم بها وقد ازدهرت هذه المراكز التى كانت كلها داخل فترى وكانم وبدأت تأخذ طابع التعليم الأولى فى تحفيظ القرآن الكريم ودراسة علومه[٣] ومن هنا فإن أهل فترى كانم لم يكونوا هم الأهل الذين وصفهم ليو الأفريقى (الحسن الوزان) بأنه لا توجد لديهم حضارة أو آداب بل إنما وصل فريق منهم والذين تلقوا دراسات فى العلوم الإسلامية إلى درجات من الرقى والمجد وكان لديهم من المؤهلات التى مكنتهم من ذلك ، حيث ظهرت منهم طبقات كانوا فصحاء السليقة ، شهد لهم بطلاقة اللسان ، يخطبوا من على المنابر ساعات طويلة ، كما كانوا أهل علم ومعرفة وفكر[٤] وذلك عكس الصورة التى أعطاها لنا الحسن الوزان عند وصفه لسكان الجبال لكن

---

(1) Leo Africanus, A History and description of Africa . vol 3 P 24 .
(2) Trming ham, J . s : opcit P 105 .

(٣) إبراهيم طرخان : امبراطورية البرنو الإسلامية ص١٧٥ .

(٤) عبد الرحمن زكى : الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقيا .ص٢٢ .

المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ، ص ٢٤٤ .

أفاض عن دور رجال الدين والفقهاء والعلماء ومدى تقدير السلطان لهم وتقربهم إليه وآخذ مشورتهم فى كل ما يهم الدولة من المشورات الدينية(١) .

ولقد حرص سلاطين فترى كانم من خلال إتصالتهم بالقاهرة وغيرها من البلاد الإسلامية إلى دعوة العلماء ورجال الدين من القاهرة لكى يقيموا فى بلادهم يعلمون الناس أمور دينهم ويفقهونهم ويحاولون ابعادهم عن رواسب العهد الماضى حيث الوثنية ومن هنا قام علماء القاهرة بدورهم فى ذلك المضمار حيث كان يقع عليهم العبء الأكبر هم وعلماء فزان وزويلة وطرابلس نظرا لقرب المسافة وسهولة الإتصال عبر الإنتقال من خلال الواحات المنتشرة فى الصحراء الكبرى هذا بالإضافة إلى أولئك الكثيرى العدد الذين كانوا يصلون إلى البلاد صحبة قوافل الحجاج حيث كانوا يمكثون فى فترى - كانم لكى يؤدوا أقدس رسالة وأصعب أمانة وهى رسالة وأمانة نشر الإسلام فى تلك الربوع من القارة الأفريقية(٢) .

هذا وأنه من خلال الرؤية الإسلامية وانتشار الإسلام فإن فترى - كانم (سلطنة البولالا) استطاعت من خلال مكوناتها الشخصية ومجتمعها الإسلامى الجديد الذى بدأ يأخذ طابع المجتمع الإسلامى الشامل منذ القرن (الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) فى قلب القارة الأفريقية ، أن تحدد طريقها بعد أن ارتضت غالبية الشعب الذين انتشر الإسلام بينهم ، ولم يشر الحسن الوزان إلى انتشار العربية بينهم كما اشار إلى ذلك فى بعض الأماكن التى زارها - وبذلك كان ذلك الشعب قد اتخذوا المذهب السنى ومذهب الأمام مالك بن انس مذهبا لهم .

وساروا على نهجه وتعاليمه فى كل أمورهم الإسلامية والحياتية (٣) بل أن الفكر والثقافة والحضارة والقيم لم تكن فى دولة البولالا وفقا على طائفة معينة من الشعب ، بعد أن قرب السلاطين إليهم العلماء ورجال الدين والمثقفين ذو الطابع الإسلامى بل طلبها وشجعها الحكام الذين أكثروا فى حفظ القرآن ودراسة علوم الفقه والدين الإسلامى وكل ما يمت إلى تلك العلوم بصله من قريب أو بعيد (٤) .

---

(١) الحسن الوزان : نفس المصدر . ص٥٣٩ .

(٢) سر الختم عثمان : العلاقات بين مصر والسودان فى العصور الوسطى (رسالة ماجيستير غير منشورة ص٢٢ .

(٣) سليمان أحمد الحنفى : كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر ص١١٨ .

(4) Shinnie, M : Ancient African Kingdoms P . 70 .

ولقد اتصل سلاطين البولالا رغم طبيعة العداوة التى كانت فيهم وميلهم للحروب واتقانهم الفنون العسكرية بالخليفة العباسى فى القاهرة فإنهم حرصوا أيضا على الإتصال بالعلماء وأخذوا مشورتهم فى كثير من الأمور الهامة فى البلاد وهذا دليل قوى على انتشار الثقافة العربية الإسلامية فى البلاد ومن ذلك نجد السلطان عبد الجليل المؤسس الحقيقى لسطنة البولالا يحرص على طلب العلماء من القاهرة ويقربهم إليه بعد أن فشل فى اعتراف الخلافة العباسية بالقاهرة بولايته على عرش كانم بعد طرد أهلها وحكامها منها[1] .

كذلك كان سلاطين البولالا على اتصال بمختلف العلماء والمفكرين وجهابذة الدين فى العالم الإسلامى وكثيرا ما كان يفد إلى بلادهم الكثير من العلماء ، كما تم تبادل الرسائل بين علماء مصر وفزان وطرابلس فى كثير من المسائل الدينية التى كان يستعصى على رجال الدين فى بلاده حلها وهكذا كانت سلطنة البولالا على اتصال بكثير من البلاد الإسلامية عن طريق السفارات الرسمية وتنقلات الحجاج والطلبة[2] .

ولقد أوجد الإسلام بين مصر وبلاد المغرب العربى والأفريقين سكان السودان الوسط والغربى نوعا من الأنسياج الثقافى الرائع حيث تركت تلك الصلات الإسلامية صورة من أبرز مظاهر الحضارة العربية الإسلامية وأن ما تركه الدين الإسلامى من أثر فى نفوس تلك الشعوب ذلك الحماس المتزايد لدراسة العلوم الإسلامية والثقافة فقد ترك الإسلام أثرا عميقا على طابع الحياة اليومية وساهم فى اثراء الحركة العلمية والفكرية والثقافية لدى الأفارقة سكان تلك المناطق ، فقد اعترف الأفارقة للعرب المصريين والمغاربة بالتفوق الثقافى العلمى لاسيما أنهم تلقوا مبادىء التعاليم الإسلامية ودراسة العلوم الإسلامية على ايديهم[3] ولقد خطا التعليم الإسلامى خطوات واسعة فى بلاد فترى - كانم صحيح أنه لم يصل إلى الدرجة التى وصل إليها فى مدن السودان الغربى كتمبكتو ، جنى جاو ، والاته برنى ، ومالى وغيرها من المراكز الإسلامية الشهيرة فى تلك الأنحاء ، إلا أنه وجدت أنواع من المدارس والكتاتيب على اقل تقدير تحفظ القرآن الكريم بجوار المساجد حيث لم تخلو أصغر قرية يوجد بها تجمع إسلامى من وجود فقيه يعلم الصغار علوم الدين الإسلامى وبحفظهم القرآن الكريم وهذه صورة تطالعها فى كل أنحاء العالم الإسلامى وليس فى سلطنة البولالا فقط[4] وقد أدى ذلك إلى ظهور طبقة متوسطة مثقفة ومتعلمة تؤدى دورها فى المجتمع

---

(١) السيوطى (عبد الرحمن) : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ص١٦٢ .

(٢) جمال زكريا قاسم : العلاقات العربية الأفريقية ص٤٤ .

(٣) نعيم قداح : حضارة الإسلام وحضارة أوربا فى أفريقيا الغربية .ص ١٥٥ .

(٤) على أبو بكر : مرجع سابق ص٣٤ .

مثلما هو معروف فى مصر وبلاد المغرب العربى وبقية المجتمع الإسلامى ومن هنا قر بها سلاطين البلاد إليهم وعاملهم السلاطين بكثير من مظاهر الاحترام ، ومن هنا فقد أحدث التعليم تطورا هائلا فى شئون البلاد وتحرك الطلاب أفواجا إلى مصر وطرابلس وفزان وزويلة فى اعداد كبيرة ومن هنا بدأت تظهر فى المجتمع تلك الفئة المثقفة التى أدت دورها أو حاولت أن تؤديه وفق ظروف المجتمع ومتطلبات الحياة اليومية الإسلامية(١)

كذلك فإن العقيدة الإسلامية قد هذبت سلوكهم وتصرفاتهم وحياتهم اليومية ومن ذلك ما نجده عند ذكر الحسن الوزان أنهم يسترون عوراتهم بنوع من السراويل القصيرة وذلك على خلاف غيرهم من غير المسلمين الذين كانوا يعيشون عراة الأجسام ولا يسترون عوراتهم لكن الإسلام جعل ذلك خوفا من الفتنة وتأدبا وصونا لأنفسهم ولتعاليم دينهم الحنيف وقد قال الحسن الوزان أنهم يسترون عوراتهم فى الصيف ويكون باقى الجسم دون أى لباس وقد يكون ذلك فى فصل الصيف فقط أما فى فصل الشتاء فربما يكون هناك لباس كامل لكل الجسم وهذا ما شهد به الحسن الوزان(٢) .

وهذه هى بعض صفات هذا المجتمع المسلم المحافظ وهى دليل التمسك بالدين والفضيلة والعمل بها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ولا يعنى ذلك أنهم قد تخلوا عن كل عادات وبقايا الوثنية حيث أنه لازالت هناك بعض العادات تظهر حية فى المجتمع لاسيما فى المجتمعات البعيدة عن المدن ، حيث كانت لا تزال هناك عادات وتقاليد واعراف لم تزل تترك بصماتها على الحياة اليومية فى تلك المجتمعات فى السودان الأوسط والغربى ، وقد أشار إلى ذلك محمد بلو بن عثمان بن فودى فى كتابه (انفاق الميسور) يذكر بلاد التكرور بأنهم كانوا يذبحون الذبائح لبعض الأشياء والحيوانات كالحيات وكانوا يصلون للبحر كما كانت تفعل القبط للنيل فى مصر أيام الجاهلية ، إذ أنهم كانوا يدعون أن هذه من عادة البلد لا يصلح حالهم إلا بها(٣) .

وليس هذا عيبا اختص به هذا المجتمع البولالاى فى فترى (كانم) ذلك لأن أى مجتمع من المجتمعات له عيوبه وعاداته غير المستحبة أو المستحسنة التى تلازمه عصورا ، فإن العادات لها سلطان ولها قوتها وتقاليدها وأثرها فى المجتمع كما أن التقاليد والأعراف لها رواسبها القديمة والكثيرة ، كما أن لها تاريخها الطويل والتى ترجع إلى ابعاد وجذور فى اساس المجتمع وإلى أعماق النفس الإنسانية وليس هذا دليل نقص فى الدين أو التدين بقدر

---

(1) Lewis, I . M .: Islam in tropical Africa P . 304 .

(٢) الحسن الوزان : مصدر سابق : ص٥٥٦ .

(٣) محمد بلو : انفاق الميسور ص٣٤ .

ما هو راجع إلى طبيعة البشرية فى تأثرها بالقديم ولا تزال مجتمعاتنا حتى الآن ترزح تحت نبر وتأثير هذه العادات والمظاهر حتى والإنسان يهبط على سطح القمر ويسر فوقه ويحلق عدة شهور يدور حول الأرض .

وهكذا أدت الاحتكاكات الحضارية والإتصالات العلمية والزيارات التى حدثت من هنا وهناك بين الكانميين والعرب ، ثم ما حدث من التوافق والانصهار بين الشعوب والقبائل العربية المهاجرة والنازحة إلى ذلك الإقليم القريب من مصر وليبيا حيث يعتبر اقليم (فترى كانم) أقرب بلاد السودان الأوسط والغربى إلى مصر وليبيا وكذلك استقرار قبائل الطوارق وانصهارهم مع العرب وسكان تلك الجهات اذ أدى ذلك إلى أن أصبحت الأثار العربية والإسلامية فى شتى أمور الحياة ليس شيئاً نشازاً أو غريبا بل أصبحت تلك الأمور جزء من ذلك المجتمع ولاسيما بعد أن تمسك أهل تلك البلاد حكاما وشعوبا منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، السابع الهجرى ، كعقيدة وممارسة وصار المسلمون حفظ للقرآن الكريم وعندما انتشرت اللغة العربية حيث اضحى المسلمون من أهل تلك البلاد أول من تكلم اللغة العربية لاسيما بعد أن افتى غالبية الأئمة ورجال الدين والمذاهب المختلفة بعدم اباحة ترجمة القرآن الكريم إلى غير لغته العربية لأن ذلك غير جائز فى الشرع ، كما يكادون يكونون قد أجمعوا على حتمية تلاوته فى الصلوات كما أنزل من عند الله العلى الحكيم (١)ومن هنا كان كل داخل فى الإسلام يتعلم حفظ ما يستطيع أن يقيم به صلاته ثم يمضى إلى تعلم اللغة العربية ليزداد تفقها فى الدين الإسلامى ومن هنا انتشر اللسان العربى وحفظ التراث العربى الإسلامى .

كما أنه يمكننا القول فى اطمئنان أن هذه الثقافة العربية الإسلامية التى انتشرت فى ذلك الإقليم من بلاد السودان الأوسط كانت ثقافة ذات طابع عربى صرف ، بحيث لم تداخلها أية تأثيرات أخرى وذلك سبب واضح وهوان هذه الشعوب الزنجية التى اعتنقت الإسلام وتشربت ثقافته العربية الإسلامية لم تكن لها تقاليد ثقافية بالمعنى المفهوم الهم إلا مجموعة من الأساطير والقصص والحكايات الشعبية ومن ثم حملت تلك الثقافة العربية الإسلامية إلى بلادهم وتقبلوها كما هى . حيث كانت هى بالنسبة لهم هى الأمثل(٢).

وعلى هذا فأنه يمكن القول أنه غدا من المألوف أن يصل ذلك إلى درجة عالية من النماس الحضارى الذى حدث باتصال أهل كانم - فترى - فى فترة قوة الدولة البولالية مع العالم العربى الإسلامى فى شتى الوجوه والمعاملات والصلات العلمية والوفود الطلابية وقوافل

---

(٢) حسن محمود : مرجع سابق ص٥١ .

(١) حسن محمود : نفس المرجع ص٢٦٦ .

الحج والتجارة والتعامل ، كل هذه الأمور قد جعلت اللغة العربية لغة القرآن الكريم تأخذ مكانتها حتى أصبحت لغة جديدة فى مجتمع جديد وزادت توطدا ورسوخا بمرور الزمن[١].

بل أكثر من ذلك فقد قدمت سلطنة البولالا فى منطقة فترى العديد من العلماء ورجال الدين والفكر والثقافة والذين لعبوا دورا بارزا فى الحياة الإسلامية والثقافية ليس فقط فى بلادهم وإنما على مستوى العالم الإسلامى حيث ذاع صيت بعض هؤلاء العلماء فى أنحاء العالم الإسلامى ومن ذلك العالم الإسلامى الجليل الشيخ عبد السلام الفترى الذى توفى فى القرن الثامن عشر الميلادى عام ١٧٩٥م وهو نسبة إلى بحيرة فترى موطنه حيث عمل ذلك الشيخ على تنظيم الطريقة الصوفية العروسية التى اسمها العباسى ابن عروس والمتوف عام ١٤٦٠م والتى انتشرت فى بحيرة تشاد وفترى ولكن على نطاق ضيق حيث وجد انصارا لها فى بلاد فترى وتشاد [٢] .

كما أن ليس هناك أدنى شك فى أن تلك البلاد قد أفرزت وقدمت للعالم الإسلامى العديد من العلماء والأدباء الذين وصلوا إلى درجة عالية وكبيرة فى مجال الأدب والعلوم والذين عمت شهرتهم مصر وبلاد المغرب العربى والذين منهم الشيخ عثمان الكانمى ، كذلك الشيخ أبو اسحاق إبراهيم بن يعقوب المعروف بالأسود الكانمى أو الكانمى الأسود ، حيث حفظت لنا بطون الكتب بعضا من تراث هذا الشاعر والأديب الكانمى ، حيث قد ساعدنا كل المساعدة فيما رواه وأورده لنا ابن خلكان وياقوت الحموى عند أخبار مثل هؤلاء العلماء مما عرفنا على مستوى أدبهم ونوعية انتاجهم [٣]

وعلى هذا فإن سلطنة البولالا رغم ظروف البداوة التى أخذت سمات ذلك المجتمع ورغم تفرغهم واهتمامهم بالشئون العسكرية والحربية أكثر من أى اهتمام آخر حيث ظهر ذلك فى تكوين سلاح الفرسان الذى اعتمد على الخيول فى ذلك العصر والتى كانت توجد يوفره منها فى فترى والذين عملوا على استيرادها من مصر وبلا المغرب ، إلا أن كل ذلك لم يمنع من القول أن البلاد انتشرت بها الثقافة العربية الإسلامية وظهرت بها حركة فكرية علمية ثقافية سعى سلاطين البلاد إلى تشجيعها وازدهارها وتقديم كل عون لها وتشجيع رجال الدين العلم والدين والفكر والثقافة وأخذ مشورتهم فى كثير من الأمور وتقريبهم إليهم واحترامهم واكرامهم وقبول شفاعتهم حين كان يلجأ إليهم بعض أفراد الشعب لطلب أجارتهم وحمايتهم من ظلم وقع عليهم من سلاطين البلاد [٤] .

---

(١) محمد عوض محمد الشعوب والسلالات الأفريقية ص٣٩ .

(2) Trim ingham, J . S : Opcit . P. 107 .

(٣) السلاوى : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى جـ٣ ص ٤٩ .

(٤) حسن محمود : مرجع سابق ص ٢٧١ .

وعلى هذا فأننا لا ندرى عن مدى انتشار الثقافة العربية الإسلامية بين عامة الناس فى ذلك البلد الأفريقى من بلاد السودان الأوسط وأن كنا نعلم أن كتايب تحفيظ القرآن قد انتشرت فى كل مكان دخله الإسلام . ولقد حرص أهل البلاد جميعهم على حفظ القرآن الكريم والتزامهم الشدة فى ذلك فقد روى بن بطوطة فى زيارته لمالى كمثال على ذلك فى غرب أفريقيا أن أهل مالى يجعلون لأولادهم القيود اذ ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظونه ، ولكنهم رغم هذا كانوا لا يتخذون اللغة العربية فى حياتهم الخاصة انما كانوا يستخدمون لغاتهم الأصلية ثم يصطنعون العربية فى تعبيرهم الثقافى وفى صلواتهم ، حدث هذا فى القرن الرابع عشر الميلادى ولازال يحدث حتى اليوم لكن ليس معنى هذا أن اللغة العربية لم تنتشر بجانب الإسلام والعلوم الإسلامية ، لكنها انتشرت حيث هى لغة القرآن الكريم والعبادة والعلوم الإسلامية(١) .

وصارت اللغة العربية هى اللغة الرسمية لحكومة البولالا وبها كانت تصدر المراسيم وجميع المكاتبات سواء فى الشئون الداخلية أم فى العلاقات الخارجية ، كذلك أثرت اللغة العربية فى جميع اللغات المحلية المنتشرة فى فترى وكانم وغيرها من أقطار السودان الأوسط والغربى فلغات هذه الشعوب مليئة بالألفاظ العربية وأكثر من هذا استخدمت الحروف العربية فى كتابة العديد من اللغات(٢) .

وعلى هذا فإن دور الإسلام واللغة العربية وانتشار العلوم العربية الإسلامية فى فترى كانم قد لعب دوره المؤثر والفعال فى إثراء الحركة الفكرية والعلمية والدينية الإسلامية مما ساعد على أن تظهر تلك الديار بالمظهر الإسلامى وكأنها جزء من العالم العربى الإسلامى حيث كان الطابع الإسلامى قد بدأ يأخذ بعدا عميقا فى حياة تلك الشعوب ومن ثم شاركت بلاد العالم العربى الإسلامى فى الإنطواء تحت راية الإسلام وغدت تلك الديار دياراً إسلامية تشعبت بروح الإسلامى وغدت حصنا من حصونه حتى العصر الحديث عندما داهمت القوات الفرنسية وحركة الكشوف الجغرافية تلك المناطق وعملت من جانبها على ضرب اللغة العربية وقطع كل أواصر الصلة بين تلك الأقطار وبقية أقطار العالم العربى الإسلامى .

ومن هنا فإن سلطنة البولالا الإسلامية لم يكن لها أن تصل إلى تلك الدرجة من الرقى والتقدم والتطور الحضارى الإسلامى وانتشار الإسلام واللغة العربية والثقافة الإسلامية فى تلك الأنحاء لولا جود تلك العلاقات والصلات التى تعرض لها فى الباب القادم .

---

(1) shinnie, M . : opcit P . 71 .

(٢) ابراهيم طرخان : مرجع سابق : ص٧٧ .



الباب السادس

علاقات الدولة بالعالم الإسلامي



لقد كان ظهور سلطنة البولالا على مسرح الأحداث السياسية كقوة كبرى فى السودان الأوسط والغربى مدعاه لها أن تمد ببصرها إلى خارج حدودها السياسية بعد سيطرتها على كانم وذلك فى القرن الرابع عشر الميلادى الثامن الهجرى لكى نقيم معها علاقات وصلات سياسية وثقافية واقتصادية وطيدة ، ذلك لأن احساس سلاطين تلك الدولة بالدور الذى لعبوه فى توسيع رقعة سلطتهم قد اقتضى منهم اتخاذ مظهرا من مظاهر الشرعية فى حكم تلك البلاد ومن هنا كان اتصالها بالقوى الإسلامية المختلفة المعاصرة واظهارها لروح الإخوة الإسلامية ومن هنا ظهر هذا الاتجاه فى حرص سلاطين تلك الديار على اقامة علاقات وثيقة مع البلدان المحيطة بها[١].

ولقد كانت الأقطار المجاورة لها وتصلها بها حدود سياسية مباشرة حيث لم تكن هناك عوائق طبيعية أو موانع تحول دون قيام صلات وطيدة لاسيما مع الشمال الشرقى حيث مصر ومع الشمال المجاور حيث طرابلس وفزان زويلة وكذلك مع تونس بعد السيطرة على كانم[٢].

العلاقات السياسية والثقافية والإقتصادية مع مصر :

فى حقيقة الأمر أنه قد كانت هناك علاقات سياسية بين سلطنة المماليك فى مصر وسلطنة البولالا الإسلامية لاسيما مع بداية القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) ولقدكانت تلك العلاقات السياسية قوية ومباشرة بالمعنى المفهوم نظرا لقرب الحدود السياسية بين الطرفين وعلى هذا فأنه من الثابت تاريخنا أنه كانت هناك صلات قوية وعميقة بل وطيدة ، وذلك بسبب موقع مصر الجغرافى الممتاز الذى جعلها قلب العالم الإسلامى وذلك إلى جانب كونها مقرا للخلافة العباسية فى القاهرة وحامية الحرمين (مكة المكرمة - المدينة المنورة) الشريفين والأماكن المقدسة فى بيت المقدس[٣] بعد الانتصار على التتار والمغول والصليبيين ، ولقد عنى سلاطين المماليك فى مصر عناية كبيرة ببسط حمايتهم على الأماكن المقدسة ونشر نفوذ مصر فى الحجاز وتطور هذا الحال حتى اتسم طوال القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) فترة سيطرة البولالا على كانم - بتقليد غريب وهو صدور تفويضات تشريفية من سلاطين مصر وحكامها ولقد كان للخلفاء العباسيين فى القاهرة مكانة سامية فى نفوس كثير من الحكام المسلمين على مستوى العالم الإسلامى اجمع إلا أن ذلك لا يعنى أن الخليفة العباسى فى مصر كان له نفوذ على جميع ممالك

---

(١) حسن محمود : مرجع سابق ص٢٤٣ .

(2) Palmer, R : opcit : P 32 .

(٣) محمد محمد أمين : علاقات دولتى مالى وسنغاى بمصر فى عصر سلاطين المماليك ص٢٨٠ .

العالم الإسلامى[١] ولقد كان لدور مصر القيادى فى العالم الإسلامى أثره الكبير فى قيام العلاقات بين مصر والعديد من بلاد العالم الإسلامى والتى منها سلطنة البولالا وذلك لأن مصر حين صارت دار الخلافة قد عظم أمرها وكثرت شعائر الإسلام بها وعلت فيها السنة ومنعت منها البدعة وذلك بسبب سكن خلفاء بنى العباسى بمصر[٢] .

ولقد كان أحياء الخلافة العباسية فى مصر على يد السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٥٩هـ قد اضاف عاملا من عوامل دور مصر القيادى ، اذ ترتب على ذلك الأحياء أن فرض سلاطين المماليك بمصر لأنفسهم مكانا ساميا على ملوك العالم الإسلامى باعتبارهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتها وكان سلاطين مصر رغم ثقتهم فى ضعف سلطة الخلفاء العباسيين حريصين على أن يمنحهم الخليفة تفويضا بالسلطة ليكسبوا حكمهم صفة الشرعية وذلك لأنه لا يجوز أن يطلق أحد على نفسه سلطانا إلا اذا بايعه الخليفة العباسى على ذلك ومن هنا فقد أخذ يفد إلى مصر فى عصر سلاطين المماليك القضاه ورسل الحكام والملوك من مختلف أنحاء العالم الإسلامى يحملون الأموال والهدايا ويطلبون التقاليد من الخليفة العباسى[٣]

ولقد وجد بعض الأمراء المسلمين من الخليفة العباسى بالقاهرة ضالتهم المنشودة لمنحهم تفويضا شرعيا بالحكم فى ولاياتهم التى استولوا عليها بالخديعة أو القوة أو بالاغتصاب من صاحب الحق الشرعى ، ومن ذلك ما نجده عند السلطان عبد الجليل جيل سيكوماسى المؤسس الحقيقى لسلطنة البولالا والذى طرد السلطان عمر بن إدريس (٧٩٦ - ٨٠٠هـ / ١٣٩٣- ١٣٩٧م) حيث كان ذلك آخر سلاطين أسرة سيف فى كانم ، قد سعى إلى الخليفة العباسى بمصر للاعتراف بشرعية حكمه لكانم والذى انتزعه من ابناء عمومته بعد أن تم طردهم منها ، وذلك لأن مصر كان لها نفوذ قوى فى السودان الأوسط ، وأن نفوذها كان معترفا به فى تلك الجهات فى آواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، وذلك لأن نفوذ مصر كان مستمد من وجود الخليفة العباسى بها واتخاذه القاهرة مقرا للخلافة العباسية كما سبق أن عرفنا بعد سقوط بغداد ولكن هذه المحاولة من جانب سلطان البولالا للحصول على الإعتراف الرسمى والشرعى لحكمهم من السلطنة المملوكية والخلافة العباسية لم تظفر بشىء[٤] .

---

(١) جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ص٩٧ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة جـ٢ . ص٨٩ .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص٦ .

(٤) حامد عمار : علاقة مصر بالبلاد الأفريقية فى العصور الوسطى (رسالة ماجستير غير منشورة) ص٥٤ .

لكن نجد (الحسن الوزان) يذكر لنا أن حفيد السلطان عبد الجليل السلطان محمد رشاد والذى حكم (٨٣٣-٨٥٤ هـ / ١٤٢٧-١٤٥٠ م) استطاع بفضل هداياه ومجاملاته أن يكسب صداقة سلطان القاهرة ورعايته[١] ويبدوا من هذه الأقوال أن السلطان محمد رشاد استطاع الوصول إلى اعتراف من السلطنة المملوكية والخلافة العباسية فى القاهرة بشرعية حكمه لسلطنة البولالا وفرض سيادتها على فترى وكانم والا ما الدافع للحسن الوزان الذى زار سلطنة البولالا أن يذكر أن ذلك السلطان استطاع أن يكسب صداقة سلطان القاهرة ورعايته ، وقد تكون الصداقة دون الاعتراف بالشرعية بالحكم لكن لفظ رعايته يحدد لنا أن الخلافة العباسية بالقاهرة قد اعترفت بشرعية وسيادة البولالا على الكانم وذلك يتناقض مع رأى الأستاذ حامد عمار وقد يكون ذلك الرأى ينطبق على السلطان عبد الجليل وليس على حفيده .

وعلى هذا فأنه يمكن القول بأن رعاية حكام القاهرة لسلاطين البولالا لا تعنى أن حكام القاهرة كانت لهم أية مطامع سياسية أو فرض نفوذ أو وصاية على البلدان الأفريقية المجاورة كفترى - كانم أو غير المجاورة وأن الصلات كانت صلات من الوفاق والتفاهم بينهم وبين أخوانهم فى السودان الأوسط والسودان الغربى ، ومن ثم فقد تم ذلك بخلق نوع من التعاون الوثيق القائم على الوسائل السلمية ، بل أن هذه الصلات قد نطورت على مر الأيام واستمرت تسير فى طريقها من عصر إلى عصر حتى كانت نهاية العصر المملوكى وقد احتفظت بطابعها الأخوى بين الفريقين لاسيما أيضا بعد قيام الخلافة العثمانية وسيطرتها على مقاليد الأمور فى مصر منذ ١٥١٧م ومن ثم كان الدور السياسى الذى لعبته مصر فى حياة هذا البلد الأفريقى من ناحية رعاية سلاطين مصر لحكام هذه البلاد دور بالغ الأهمية[٢] .

وعلى هذا فإن العلاقات السياسية بين مصر وبلاد فترى - كانم والسودان الأوسط والغربى فى القارة الأفريقية فى العصور الوسطى لم تكن علاقة تستوجب نوعا من الإلتزامات وأن العلاقات كانت تسير حرة غير مقيدة بشروط وذلك لأن اتخاذ القاهرة كمركز للخلافة العباسية ومقر حكم سلاطين المماليك قد كان له أثر كبير فى توطيد العلاقات السياسية بين مصر وفترى كانم وغيرها من دول غرب ووسط القارة وعلى هذا كان حرص سلاطين البولالا على أن يحيطوا أنفسهم بذلك السياج من الشرعية لتدعيم ملكهم فى نظر رعاياهم وهذا ما قام به السلطان البولالى عبد الجليل على الرغم من أنه لم يظفر بشىء ، وعلى

---

(١) الحسن الوزان : مصدر سابق ص٥٥٦ .

(٢) محمد المعتصم سيد : القاهرة والحضارة الإسلامية فى أفريقيا ص١٠ .

العكس من ذلك فقد نجح حفيده فى أن ينال عطف ورعاية السلطان فى القاهرة ومن هنا فإن كثيرا من سلاطينهم كانوا يطلبون من الخليفة بالقاهرة ذلك التقليد بتفويضهم الحكم فى بلادهم وعادة كان الخليفة العباسى يمنح ذلك التقليد[١] والا لما منحه لحفيد السلطان عبد الجليل جيل سيكوماسى .

ولقد كان الدافع الذى دفع السلطان عبد الجليل وحفيده السلطان محمد رشاد ، إلى السعى إلى الخليفة العباسى فى القاهرة انطلاقا مما كان يسود ذلك العصر وما اصطلح عليه المسلمون بأنه لا سيادة بدون تفويض من خليفة المسلمين ، بل أن سلاطين بلاد السودان كانوا يجدون فى ذلك التقليد الشرعى نوعا من التبرك والعزة والإعزاز والفخر وذلك لكى يكسبهم الهيبة والإجلال والإحترام بين رعاياهم ، حتى أننا نجد كثيرا من هؤلاء السلاطين من تلقب منهم بلقب سيف الخلافة ، وظهر الامامه وعضد الدولة أمير المؤمنين[٢] ومن هذا المنطلق لدور الخليفة العباسى فى العالم الإسلامى فقد سعى سلاطين البولالا وبقية سلاطين السودان الأوسط والغربى بدورهم للحصول على تأيد مصر السياسى والمادى للاعتراف بشرعيتهم فى حكم البلاد التى تولوا إدارة شئونها ، ومن هنا كان تقديم الهدايا والمجاملات والمجيء للقاهرة لمقابلة الخليفة العباسى ، بل أنه يزداد الحرص فى حالة مرور سلاطين الممالك الإسلامية فى السودان الأوسط والغربى على مقابلة الخليفة العباسى والحصول على تقليد شرعى بذلك وذلك فى حالة قيام أسرة جديدة فى الحكم مثلما حدث فى حالة عبد الجليل واستيلاءه على مقاليد الأمور بالقوة ، حيث اشترى بضعة رءوس من الخيول من تجار بيض وراح يقوم بحملات على أراض أعدائه من الكانميين ولقد كان النصر حليفه على الدوام لأن رجاله كانوا مسلحين بأسلحة حديثة فى حين لم يكن لدى خصومه سوى اقواس من الخشب ومن هنا اغتال سيده واستولى على الحكم وهذا ما دفعه للاتصال بمصر والحصول على رعايتها[٣] .

كذلك فقد كان أداء فريضة الحج عاملا هاما من عوامل قيام العلاقات السياسية بين مصر وفترى - كانم بل حجاج البولالا مع بقية حجاج السودان الأوسط والغربى يمرون عبر مصر وبلاد المغرب العربى وذلك لكى يتعرفوا على أهل تلك البلاد ولكى ينهلوا من تيارات الفكر الدينى وكان ذلك من عوامل تقوية العلاقات السياسية وتطور الأساليب الحضارية بالإضافة إلى أن الحج ظل يمثل أقوى الروابط السياسية التى ربطت سلطنة المماليك بدول

---

(١) محمد محمد أمين : مرجع سابق . ص ٢٨٩ .

(٢) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف . ص٢٠٩ .

(3) urvary, Y : histiore de population du sudan cantral . 147 .

السودان الأوسط والسودان الغربى ومن بينها بالطبع سلطنة البولالا حيث أن سكان تلك النواحى اعتادوا فى طريقهم أن يسلكوا الدروب الصحراوية والتى منها بالقطع الطريق الذى يربط فترى - كانم بالشمال الأفريقى حيث كوار - فزان - زويلة - طرابلس ثم شرقا إلى مصر وكذلك من فزان إلى واحات مصر الواقعة فى الصحراء الغربية وصولا إلى مصر وحيث الطريق الذى ينتهى عند بولاق الدكرور بالقرب من سفح الهرم ومن هنا فأن الحديث عن دور الحج فى تعميق العلاقات بين مصر والبولالا منذ القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن السادس عشر وسقوط الكانم فى أيدى السلطان إدريس الوما سلطان برنو عام ١٥٩٣م يوضح الصلات الإسلامية والسياسية والإقتصادية التى كانت سائدة فى تلك الفترة بين البلدين .

وعلى الرغم من أن الوثائق التى عثر عليها بالمر وبارث عن سلاطين أسرة البولالا لم يوضح لنا عن سلاطين قاموا بأداء فريضة الحج ، إلا أنه مما لا شك فيه أنه فى تاريخ تلك السلطنة الطويل الذى استمر أطول من ستة قرون متواصلة لا شك أن العديد من هؤلاء السلاطين قد قام بأداء فريضة الحج والمرور بالقاهرة ، لأنه ليس من المعقول أن تكون تلك دولة إسلامية ويشجع سلاطينها رجال العلم ويقربوا رجال الدين ويكرموا ويحترموا من كان ينسب إلى آل البيت (رسول الله صلى الله عليه) ولا يقوموا بأداء فريضة لاسيما أنهم أقرب سلطنة إلى مصر[1] .

وبانتهاء سلطنة المماليك فى مصر عام (٩٢٢- ٩٢٣هـ / ١٥١٦- ١٥١٧م) واستيلاء العثمانيين على مصر والشام وسائر ممتلكات السلطنة المملوكية فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى حيث كان ذلك معاصرا للسلطان محمد ناجارى البولالى Mohamed Nagary والذى حكم خمسة عشر عاما (٩٢٢ - ٩٣٧هـ / ١٥١٦ - ١٥٣٠م) واستيلاء العثمانيين على القاهرة وبقاء أسرة البولالا تحكم حتى عام ١٣٦٥هـ/ ١٩٢٢م وهذا موضع الأهمية ، فإن مصر تحت العصر العثمانى ظل لها مركزها المرموق وظلت تباشره مسئولياتها تجاه شعوب القارة الأفزيقية ، بل أن علاقاتها ظلت مستمرة مع سائر الدول رغم أن السلطان سليم الأول حاول أن يضعف مركز مصر الفكرى والأدبى والقيادى وينقل العلماء والتجار والفنيين والثروة العلمية والفنية إلى القسطنطينية ولكنه رغم كل هذه الأمور فقد نهضت مصر بمسئولياتها تجاه أخوة الإسلام فى القارة الأفريقية وظل لها دورها الممتاز بالنسبة للولايات العثمانية الأخرى[2] .

---

(١) سر الختم : مرجع سابق ص١٣٨ .

(٢) عبد العظيم خطاب : قنصوة الغورى ونهاية الدولة المملوكية فى مصر والشام (وسالة دكتوراه غير منشورة ص٢٣ .

وكما اتصلت مصر ببلاد فترى - كانم وقامت بينهما علاقات سياسية وطيدة أشار لها العديد من المؤرخين بل أن ذلك الدور ظل يؤدى حتى بعد سقوط مصر تحت ضربات الجيش العثمانى ، ذلك لأن وقوعها فى طريق الحج قد جعل الحج عاملا اساسيا فى سياسة الربط بين مصر وبلاد البولالا حيث كانت هناك حدود مباشرة تربط البلدين بعضها ببعض وكانت مصر أقرب البلاد إلى سلطنة البولالا سواء وهى تسيطر على الكانم أو بعد انتهاء نفوذها على الكانم وانكماشها داخل حدودها حول بحيرة فترى حيث نهر يوى YAO كذلك فإنها مارست دورا ثقافيا وعلميا وفكريا لا يقل شأنا عن الدور السياسى الذى لعبته ، بل أن الدور الثقافى كان أكثر وضوحا و أشد تأثيرا على مجرى الحياة الفكرية والثقافية فى سلطنة البولالا ، وعلى هذا فإن سلطنة البولالا الإسلامية فى عهد أسرة عبد الجليل التى ظل أفرادها يتوارثون الحكم قد ارتبطت بالعديد من الأقطار العربية والإسلامية ، وقد قامت بينها وبين الأقطار المجاورة علاقات ثقافية وطيدة ربطت تلك السلطنة برباط الأخوة الإسلامية مع تلك الأقطار التى أعطت وأخذت وتبادلت الثقافات الإسلامية وقد ارتبطت بمصر وبلاد المغرب العربى لاسيما ليبيا وتونس . وبقية دول السودان الأوسط والغربى والتى كانت تعاصرها والتى منها واداى وباجرمى وبرنو وامارات الهوسا وسنغاى ودولة مالى وربما السودان الشرقى[1] .

وإذا كانت دولة البولالا قد ظهرت كقوة مؤشرة مع بداية القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى فإن ذلك القرن قد شهد ظهور دولة المماليك فى مصر والشام وقد أضحت أقوى وأغنى قوة إسلامية على مسرح العصور الوسطى وقد ساعد على بلوغ الدولة المملوكية تلك المكانة من الازدهار السياسى والثقافى والإقتصادى ، وذلك لأن مصر صارت محل سكن العلماء ومحط رجال فضلاء وذلك سبب سكن خلفاء بن العباسى بمصر ، وليس هناك بلد إسلامى فيه الدين قائم كقيامه بمصر ولا شعائر الاسلام ظاهرة كظهورها فى مصر ولا نشر للسنة والحديث والعلم كما هو فى مصر[2] ذلك لأن مدينة القاهرة الباهرة كانت أكثر عمارة واحتراما وحشمة لأن بها اجل مدارس وأضخم خانات وأعظم داراً لسكن الأمراء فيها لأنها المحظوظة بالسلطنة وأمورها ، كما أنه ليس أدل على مكانة القاهرة إلا ما ذكره ابن خلدون عن مكان مصر وقاهرتها حيث يقول سألت قاضى القضاه بفاس وكبير العلماء بالمغرب ابا عبد الله المقرى عند مقدمة من الحج فقلت كيف هذه القاهرة ، قال من لم يراها لم يعرف عز الإسلام فشد إليها الرحال وما إن وصلها حتى قال عنها رأيت حضرة

---

(١) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الإسلامية (رسالة دكتوراه غير منشورة) ص ٢٢٨ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة . جـ٢ ص٨٦ .

الدنيا وبستان العلم ومحشر الأمم ومدرج الزر من البشر وإيوان الإسلام وكرسى الملك تلوح القصور والدواوين فى جوة وتزهو الخوائق والمدارس بافاضة وتضئ البدور والكواكب من علمائه[١] وكيف لاوقد كانت القاهرة خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادين قلب الإسلام وكعبة الحضارة الإسلامية فقد فتحت القاهرة ذراعيها تستقبل سلاطين من الأمراء والعالميين والصالحين وطلاب العلم وغيرهم ، ومن هنا فإن العلاقة بين مصر وسلطنة البولالا وغيرها من بلاد السودان الأوسط والغربى علاقات عريقة وذات صلات وثيقة وقديمة بين الطرفين وكان هذا الإتصال اتصالا إيجابيا ومثمرا ، افادت منه تلك الأنحاء من حضارة مصر الإسلامية العريقة[٢] .

وعلى هذا فإن دور مصر واسهامها فى حضارة وثقافة وتحديث ورقى السلطنات السودانية الإسلامية دور لا ينكر أو يجحد خاصة أن علاقات مصر بهذه الأقطار أزلية ومستمرة بل هى تلقائية بحكم قوانين الحضارة والجوار وشرائع التلاقح الحضارى[٣]
ولقد أضحت مصر محور نشاط علمى كبير فى عصر سلاطين المماليك قصدما العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار إلى مصر واختاروها مقرا لاقامتهم ونشاطهم ولقد كانت المؤشرات الدينية من أبرز الظواهر الثقافية التى ربطت فترى - كانم والسودان الأوسط والغربى بحضارة مصر الإسلامية ، ذلك لأن الدين الإسلامى كان عاملا أساسيا فى التغيرات الثقافية والإجتماعية التى شهدتها تلك الأقطار فى العصور الوسطى ، ذلك لأن أعظم دليل على التغيرات الثقافية أن مصر شهدت نشاطا علميا تمثل فى العديد من المدارس التى انشأها السلاطين فى عهد السلطان الظاهر بيبرس حتى السلطان الغورى وأن سلاطين المماليك قد أكثروا من بناء المدارس والمساجد والمكاتب (الكتاتييب) ، وإذا كانت المدارس فى ذلك العصر تمثل المعاهد العليا والجامعات فى عصرنا فإن الكتاتيب التى كانت تحفظ القرآن الكريم وتدرس العلوم الإسلامية نهضت بالمرحلة الأولى من مراحل التعليم[٤] .

ومن هنا فإن مصر أعدت لكى تكون مركز للحركات الإسلامية برمتها ، لذلك كان لزاما عليها أن تقوم بدورها فى بلاد السودان الأوسط وفى العالم الإسلامى ، بل أن وضعها فى تلك الحقبة التاريخية القرن (الثامن ، التاسع الهجرى) قد جعل لها نصيب موفور فى توجيه العالم الإسلامى والسيطرة على جهود المسلمين وآرائهم ومقاصدهم ومصيرهم ولأن مصر أصبحت زعيمة العالم الإسلامى فقد قامت بواجبها إزاء دول السودان الأوسط والشرقى

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج٧ص١٥٨ .

(2) Palmer H : opcit P . 20.

(3) Flint : History of Nigera and Ghana P . 42 .

(٤) سعيد عاشور : مرجع سابق ص٢٤٢ .

والغربى ومن أهمها المحافظة على التراث الثقافى الإسلامى وإيصاله إلى الشعوب الإسلامية وصيانته من العبث وكيف أن مصر وفقت فى ذلك توفيقا عظيما ولقد كانت حركة حماية الأدب العربى والتراث الإسلامى من التلف هى حركة عظيمة لأنها كانت ترمى إلى حركة أحياء العلوم ونشيطها وقد اقترن ذلك بالعصر المملوكى[1] الذى شهد أن هذه الصلات قد تطورت على مر الأيام واستمرت تسير فى طريقها من عصر إلى عصر آخر وقد احتفظت بطابعها الأخوى بين البلدين وكان الدور الذى لعبته مصر فى حياة هذه البلاد دور بالغ الأهمية وكانت صلاتها بسلطنة البولالا وغيرها من السلطانات الأخرى تعنى فخرا شخصيا تعتز به هذه السلطنة فى تاريخها لأن الروابط الثقافية التى قامت بينهما انما هى مؤثرات حضارية وثقافية وصلت إلى بلاد البولالا من المراكز الثقافية فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية الأخرى لأنه صحب انتشار الإسلام انتشار الثقافة العربية الإسلامية[2] .

وقد فضلت شعوب تلك الديار استخدام الطرق التى تؤدى إلى مصر كطريق للحج ، فقد كانت زيارة مصر بلنسبة للكثير منهم جزءاً اساسيا من تلك الزيارة المقدسة للحج ، ولقد كان أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة والمرور بالديار المصرية من أقوى الروابط والصلات التى ربطت شعوب تلك الأنحاء بمصر وبقية دول العالم الإسلامى ، وقد انفردت مصر بين الأمم الإسلامية بهذا الإزدهار العلمى فقد بلغت فيها الحركة العلمية والأدبية درجة من التقدم ، ذلك لأن القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى قد حفل بعدد كبير من العلماء البارزين ، جهابذة العلم والمعرفة فى مختلف العلوم والفنون وساهمت المدارس فى اعداد عناصر هذه الحركة وفى تخريج العدد الجم من أبناءها وربما كانت تلك الفترة فى الواقع عصر الإزدهار الذهبى من حيث الإنتاج العلمى الممتاز ، والحق أن مصر أصبحت مبدأنا لنشاط علمى واسع يدل على ذلك التراث الضخم من الموسوعات الأدبية وكتب التاريخ والمؤلفات العديدة فى العلوم الإسلامية والدينية التى تركها علماء ذلك العصر واستفاد منه طلاب بلاد السودان الأوسط والغربى ، وقد تأثر رجال دين تلك البلاد وعلمائها بكل الإتجاهات التى ظهرت فى الأدب والثقافة من شعر ونثر وكانوا يتابعون آثار أدباء وعلماء ورجال دين مصر ويتناقلون أخبارهم ويحفظون لهم انتاجهم بدرجة تدل على تغلغل الأدب العلوم الإسلامية فى نفوسهم وقد أدى ذلك إلى نهضة ثقافية إسلامية كبيرة فى تلك البلاد والبلاد المجاورة وإلى تطور ثقافى يتمثل فى انتشار الإسلام وقد ساعد ذلك على توسيع نطاق العلاقات الخارجية وفتح الآفاق الروحية فى جميع النواحى الثقافية والفكرية[3] بل أن

---

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصر بين الأيوبى والمملوكى ص٣٧١ .

(٢) جمال زكريا قاسم : العلاقات العربية الأفريقية (فصل) ص١٦ .

(٣) ديشان هوبر : الديانات فى أفريقيا السوداء ترجمة أحمد صادق حمدى ص١٣٠ .

مجموعة من العلماء والدعاة الذين حملوا مشعل العلم والهداية والعرفان إلى تلك الإقصاع إنما قد تلقوا تعليمهم فى مدارس مصر الإسلامية ، ولقد عرفت سلطنة البولالا كل المعارف الإسلامية التى توصل إليها العالم الإسلامى سواء عن طريق الكتب التى كانت ترد على أسواقها بكميات كبيرة أو عن طريق الطلاب السودانيين الذين عرفت عنهم فى ذلك العصر حركة دائبة باتجاه مصر وبلاد المغرب العربى(١) .

وللحقيقة فإنه لا يمكن الحديث عن أثر مصر الثقافى والحضارى فى بلاد البولالا دون الحديث عن دور الأزهر فقد كانت مصر مكانا مقصودا لشتى المسلمين ويؤمها الناس من جميع أنحاء العالم الإسلامى بسبب وجود الأزهر وما كان لمكانة الأزهر فى قلوب المسلمين ولقد جاء أبناء السودان الأوسط والغربى وبدون أدنى شك أن من بينهم طلابا قدموا من فترى – كانم إلى مصر لتلقى العلم والمعرفة والنفقة فى مصر وليشهدوا حلقات الدرس فى الجامع الأزهر ولا شك أن هؤلاء الطلاب من دولة البولالا قد تخالطوا مع اخواتهم الأفارقة فى رواق التكارنة أو على وجه الخصوص فى رواق البرنية التى كان يخصصها لطلاب برنو وانهم استفادوا استفادة كاملة من اختلاطهم مع طلاب بقية العالم الإسلامى وعرفوا كثير من العادات والتقاليد التى لم تكن معروفة فى بلادهم اضافة إلى تلقى العلوم الإسلامية على جهابذة العلم الإسلامى فى ذلك العصر ويستمعوا من شيوخه الأجلاء جهابذة العلم والشريعة والدين ، جاء هؤلاء القوم مع غيرهم من أبناء البلاد الإسلامية للإستفادة من فيض العلوم الذى لا ينقطع وذلك من أعرق وأقدم جامعات العالم الإسلامى حتى أصبحوا يختصون برواق خاص بهم ينزل به الطلبة طاعمين كاسبين متفرغين للدرس والتحصيل حيث طاب لهم المقام لكى يتمكنوا من دينهم ، جامعين بين علوم العربية وعلوم الدين(٢) ولقد كثرت الأروقة داخل الأزهر ومنها رواق للأكراد ، رواق الهنود ، رواق الأتراك ، رواق البغدادين ، رواق التكاررة ، رواق الجيرت ، رواق السنارية ، رواق دارفور ، رواق التكرور وقد كان طلاب البولالا يقيمون بلا شك مع إخوانهم طلاب البلاد الأخرى فى رواق التكرور وهذا دليل قوى على حسن الاهتمام بهؤلاء الطلاب الذين يدرسون بالجامع الأزهر ، كما أنه قد يكون عدم إفراد رواق خاص بطلاب البولالا ، أن دولتهم لم تدم طويلا على مسرح الأحداث السياسية فى كانم وتقوقعت داخل حدودها حول بحيرة فترى ومن هنا كان طلاب فترى يضمهم رواق التكاررة أو رواق البرنية(٣) .

---

(٢) أحمد بابا : نيل الإبتهاج بتطريز الديباج ص١١٠ .

(٣) سليمان رصد الحنفى : مصدر سابق : ص١٠٣ .

(٣) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ص٣٠٨ .

ولقد كانت هذه الأروقة عبارة عن منافذ مشرقة يطل منها الأزهر على أفريقيا السوداء الإسلامية وعلى العالم الإسلام لتنهل من علمه الغزير الفياض والذى كان يؤخذ ويستوعب عن طريق حضور حلقات الدروس على النظام الذى كان متبعا وسائدا فى ذلك الحين حيث كان مباحا تلقى العلم ليل نهار حتى تعم الفائدة ولقد كان الأزهر لهذه الأمم بمثابة جامعة قومية وثقافية مشتركة تعمل على توحيد أمانيهم واما لهم وتعمل على توحيد جهودهم فى حماية تراثهم الحضارى والفكرى المشترك ولقد كان مبعوثى هذه الأمم الأفريقية ومن بينها طلاب فترى - كانم من أبناء البولالا سببا فى توطيد علاقة القاهرة بشعوب وحكومات هذه البلاد ، واستطاع الأزهر عن طريق هؤلاء المبعوثين أن يخلق مكانة شامخة فى أفريقيا وأصبح موقع الثقة والإعتبار لا بطلب احدى فى العالم الإسلامى علوم الإسلام إلا عن طريق الأزهر، وهكذا طافت شهرته الآفاق فى شتى انحاء العالم الإسلامى[1] .

ولقد كان ابناء البولالا فى كانم - فترى منذ أن دخلوا الإسلام نسبو المذهب حتى غلب عليهم مذاهب الإمام مالك فى الفقه وكان مذهب الإمام مالك يسود مصر وبلاد المغرب العربى وبلاد وسط السودان الأوسط والشرقى والغربى ، ومن هنا ظلت دراسته العلمية مردهره فى الأزهر إلى جانب دراسة المذاهب الأخرى حيث كان مزدهرة آخر لقدوم أبناء البولالا إلى الجامع الأزهر(٢) ولقد أشار الحسن الوزان إلى أن كثيرا من علماء وفقهاء القاهرة كانوا يأتون لسلطنة البولالا لمقابلة السلطان البولالاى ثم يعودون بعد مكوثهم فترة فى بلاده محملين بالهدايا الجميلة النادرة بحيث أنه كان لا يخرج أحد من عنده إلا مغموراً بفضله وفرحا بما ناله منه من عطاء ، وأنه كان يعامل هؤلاء العلماء والفقهاء ورجال الدين معاملة طيبة ويقابلهم بمظاهر الإكرام والإحترام والكرم[3] .

كذلك فإن طلاب البولالا الذين تعلموا فى الأزهر الشريف قد ساهموا بنصيب كبير عند عودتهم إلى بلادهم فى تطوير شتى نواحى الحياة العلمية والفكرية والثقافية ، بل أن هؤلاء المتعلمين لم يقتصر نشاطهم على الجوانب المهنية فقط بل كانوا من خلال نشاطهم الدينى يبعثون روحا إسلامية حميمة تقوم على الفهم الواعى والإدراك الواسع للحياة الإسلامية العربية ولم تقتصر هذه النهضة التى يعشها هؤلاء العلماء على الجوانب النظرية بل تعدتها إلى الجوانب العلمية[4] .

---

(١) محمد المعتصم سيد : مرجع سابق . ص٣٤ .

(٢) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ص ٧٠ .

(٣) حسن الوزان : مصدر سابق ص ٥٥٦ .

(٤) سر الختم عثمان : مرجع سابق ص ١٢١ .

وما كان لهذا التطور الدينى والفكرى والثقافى والحضارى أن يحدث فى منطقة السودان بأقسامه الثلاثة لولا أن تهيأت له فرص الإتصال بمصر فى أزهى عصورها الثقافية وأن هؤلاء الطلاب قد استفادوا كثيرا من مزايا الحياة العلمية والتعليمية فى مصر خلال القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى لدرجة أن أصبحت فيه بعض المدن السودانية فى حياتها العلمية صورة مصغرة للمجتمع المصرى وتستطيع أن تلمس هذا الأثر فى النظام التعليمى كما أنه كان من أثر التفوق الثقافى والحضارى المصرى أن توطدت العلاقة بين الأزهر الشريف ومدارس القاهرة وبين ما يمكن أن تطلق عليه تجاوزا مراكز ثقافية فى سلطنة البولالا.

وهكذا كما مارست مصر دورها السياسى والثقافى مع سلطنة البولالا وارتبطت معها بروابط قوية لاسيما فى القرن (الثامن والتاسع الهجريين ، الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين) حيث كانت تلك الصورة على درجة عالية من التفاهم المتبادل والمشترك بين مصر زعيمة العالم العربى الإسلامى بما قامت به من دور حضارى فى المحافظة على الحضارة الإسلامية وصانته من خطر المغول والتتار والصليبيين وبما ضمت فى عاصمتها من مقر الخلافة العباسية منذ عام ٦٥٩هـ .

وهكذا قامت مصر بدورها وعلاقاتها الإقتصادية مع سلطنة البولالا وغيرها من السلطنات الإسلامية فى السودان الشرقى والأوسط والغربى ومن ذلك نجد الحسن الوزان يذكر لنا كيف أنه كان حاضر عند السلطان محمد رشاد حفيد السلطان عبد الجليل أو كما أطلق عليه الحسن الوزان السلطان عمارة ووفد عليه رجل من دمياط إحدى مدن مصر المشهورة والمطلة على البحر الأبيض المتوسط وقدم له حصانا غاية فى الجمال وسيفا تركيا وقميصا من الزرد وطبنجة (سلاح نارى صغير)وبعض المرايا الجميلة وعدة مسابح من المرجان وبعض السكاكين ولا يتجاوز ثمن هذه الأشياء فى القاهرة خمسين ديناراً ، ولكن السلطان اعطاه مقابل هذه الأشياء خمسمائة دينار من عملة بلاده ، وحوالى مائة من أنياب الفيلة أضافه إلى خمسة جمال ، وخمسة من العبيد . كما اضاف أيضا أن رجال السلطان كانوا يجمعون الرقيق من الجنوب حيث القبائل الوثنية والذين كانوا يأخذونهم أسرى حرب لكى يبادلونهم بالخيول القادمة من مصر كما أن السلطان كان يحصل على الخيول من التجار البيض (المصريين والمغاربة) كما أن التجار المصريين كانوا يحضرون إلى هذه البلاد الأسلحة والأقمشة والخيول ، وكان السلطان يدفع ضعف ثمنها كى يظهر أنه كريما حتى أن التجار المصريين كانوا يتوقفون نهائيا فى بلاده ولا يذهبون لابعد من بلاطه(١) .

---

(١) الحسن الوزان : مصدر سابق ص ٥٥٦ – ٥٥٧ .

ولقد ساعدت طرق القوافل الممتدة من مصر عبر المسارب فى الصحراء الكبرى إلى بلاد البولالا إلى قيام روابط اقتصادية قوية وإلى تبادل السلع المختلفة بين القطرين وإلى قيام حركة تجارية نشطة بين مصر وبلاد السودان[1] ولقد نشط تردد التجار المصريين وازداد وصولهم إلى تلك الأنحاء ، حيث أن قرب تلك البلاد وقيام الصلات السياسية والثقافية قد فتح الباب على مصراعيه أمام التجار المصريين وازداد قدومهم على بلاد البولالا وبقية أقطار السودان الأوسط مع التركيز على سلطنة البولالا ، حيث ازداد الإقبال على التجارة المصرية ، بحيث أصبح كبار التجار المصريين يبعثون بعملائهم ووكلائهم إلى بلاد التكرور وكانت مصر والبولالا تتبادل الخيول بصفة خاصة وغيرها من السلع المختلفة ، بالإضافة إلى أن التجارة والعلاقات الإقتصادية بين البلدين كان يغلب عليها طابع المجهود الفردى سواء فى مجال التجارة أو التنقل حيث كان التجار يقومون بتجارتهم دون توجيه أو تدخل من الحكومة فى بداية العصر المملوكى مما زاد من أهمية الحركة التجارية ونشاطها[2] .

ولقد كان من نتائج هذه التجارة قيام وتوسع بعض المراكز التجارية عند التقاء السفانا بالصحراء الكبرى ومن هنا ترتب على هذه التجارة بين مصر وبلاد البولالا وغيرها من بلاد السودان الأوسط والغربى أن قام سكان الإقليم السودانى بدور هام فى تبادل السلع والحصول على ما يحتاجونه من أسواق مصر وأسواق الشمال الأفريقى وذلك لأن مصر أضحت الوسيط الأوحد فى استيراد سلع الشرق والغرب مما أوجد بها عدد كبير فى الجاليات الأجنبية ، هذا بالإضافة إلى أن سكان مصر والمغرب وهى بلاد الساحل الشمالى للقارة الأفريقية يرسلون بتجارتهم نحو الجنوب عبر الصحراء الكبرى إلى زنوج السودان الأوسط والغربى حيث كان يتم نقل هذه التجارة عن طريق قوافل الجمال التى تسلك الطرق التجارية المعروفة والتى تجرى من مصر ومدنها عبر الواحات المصرية إلى المدن الموجودة على الحافة الجنوبية للصحراء[3] ولقد رافق قيام العلاقات الإقتصادية بين مصر والبولالا ازدهار اقتصادى فى تلك الأنحاء أدى إلى تحول كبير فى حياة سكانها الإجتماعية ودخلوا المدنية على نطاق واسع بعد أن تغلبوا على البداوة فى فترات سابقة واكتسبوا المعارف والخبرات الفنية وأصبح الكثير منهم أرباب مال وأصحاب المهارات وتبدلت النظرة الإجتماعية نحو سكان تلك المدن والأقاليم البولالية الفترية الكانمية ولقد أثر ذلك الإزدهار الإقتصادى على دور أهلها فى القرن (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين) حيث أصبحت القوة العسكرية مرتبطة هنا بالقوة الإقتصادية وهذا ساعد البولالا على توسيع نطاق امبراطورتهم ولقد كان دور مصر بارزا فى

---

(1) Walz, T : Opcit . P 31 .

(2) Greenberg , J : Influence of Islam on sudanese Relgion P 13 .

(٤) محمد عبد الغنى سعودى الإقتصاد الأفريقى والتجارة الدولية ص١٨ .

مجال الحركة الإقتصادية ، بالإضافة إلى النواحى السياسية والثقافية فقد كان للحركة الإقتصادية دور فى نشر الثقافة الإسلامية[1] .

وحتى بعد سقوط مصر فى أيدى العثمانيين عام ١٥١٧ وتحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح فإن حركة التجارة بين مصر وأقاليم القارة الداخلية المختلفة قد استمرت بل زاد النشاط التجارى وزاد عدد القوافل وعدد الجمال وما تحمله من السلع والبضائع المختلفة ولقد أدى انتقال التجار المصريين إلى سلطنة البولالا وغيرها من الأقاليم الداخلية وظهورهم بكثرة فى المدن الكبرى واقامتهم فى مختلف الأقاليم إلى قيام كبار رجال الدولة البولالية وامرائها وغيرها من الدول الأخرى المجاورة من السودان الأوسط والغربى إلى النزول للإقامة عند هؤلاء التجار بالقاهرة وذلك عند مرورهم بها فى سفرهم إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز[2] كما أن الذى قد ساعد المصريين على الوصول إلى تلك الانحاء بتجارتهم وذهابهم فى قوافل كبيرة أنهم كانوا قد عرفوا طرق التعامل مع أهالى تلك البلاد بالإضافة إلى اتقانهم معالم طرق القوافل المؤدى إلى تلك البلادبل أكثر منها وسطا وغربا وقد أدى ذلك إلى نتائج عظيمة المدى فى المجال التجارى وأصبحت الطرق التجارية أكثر سهولة بسبب استخدام القوافل المصرية الدائم والمستمر لهذه البلاد[3] .

هذا بالإضافة إلى أن دور مصر الإقتصادى لم يقتصر على اتجاهها إلى الغرب على الأقاليم البولالاية ، بل أن القوافل المصرية كانت تجوب الصحراء الكبرى حاملة إليها المصنوعات المصرية لقاء ما تأتى به من منتجات محلية وقد دخل التجار المصريون حاملين بضاعتهم إلى سلطانات النيجر الإسلامية وإلى مدنها المختلفة .

بل أن القافلة المصرية التى كانت تسير إلى تلك الجهات كانت تصل فى بعض الأوقات إلى إثنى عشر الف جملا أى ما يوازى حمل ثلاثين سفينة بحرية وقد حمل التجار المصريون مصنوعات حازت اعجاب سلاطين تلك الجهات ، فقد كان معظم هذه المصنوعات من الأنواع الراقية الغالية الثمن والتى اقتصر استعمالها على السلاطين وعلياء القوم والأمراء ، وذلك لأن المصنوعات المصرية التى ترد من مصر كالأوانى النحاسية والمصنوعات الحديدية والفضية والذهبية وأدوات الزينة ومصنوعات الزجاج كان يتمتع بالحصول عليها وتداولها سكان المدن الأغنياء فى البلاد بوجه خاص فعرفوها وولعوا بها[4] ولقد كانت الصادرات إلى مصر عبارة عن العاج وريش النعام والصمغ وبعض الجلود وجوز

---

(١) عز الدين أحمد موسى : النشاط الإقتصادى فى المغرب الإسلامى . ص٣٣٩ .

(٢) حامد عمار : علاقات مصر بالبلاد الأفريقية فى العصور الوسطى ص٥٧ .

(٣) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية فى العصور الوسطى ص٤٧ .

(٤) السعدى : تاريخ السودان ص٧٤ .

الكولا والرقيق وليس أدل على عمق الصلات الإقتصادية بين مصر وتلك السلطنة وغيرها من السلطنات الإسلامية ، أن الملك وحاشيته من رجال البلاط الملكى أنهم كانوا يتعاملون فى شراء حاجاتهم من التجار المصريين بالشراء بالدنانير والدراهم المصرية والمغربية بالإضافة إلى الدنانير المحلية وذلك لشراء المنسوجات الغالية الحريرية والتحف والكتب وغيرها من الأشياء الثمينة(١) وليس أدل على دور التجار المصريين فى منطقة السودان وجنوب الصحراء الكبرى مما ذكره ابن خلدون من أن عددا من التجار المصريين اشتروا حجراً ذهبياً من أجود المعادن يزيد وزنه عن عشرين قراطا منقولا فى المعدن من غير علاج بالصناعة ولا تصفية بالنار وكانوا يرونه من أنفس الذخائر والغرائب لندرة وجود مثل هذا المعدن(٢) ولقد نتج عن زيادة التعامل والمعاملات بين مصر وبلاد البولالا (كانم - فترى) أن أصبحت الدراهم التكرورية (عملة البلاد) من العملات المعروفة والمشهورة فى مصر ، بل ومن أهم العملات المتداولة فى أيدى الناس ، وذلك نظير ثبات قيمتها فى الأسواق وجودة عيارها ، وليس أدل على ذلك من أن السلطان المملوكى برسباى عندما اراد اصلاح أحوال العملة فى مصر عام (٨٢٦هـ ١٤٢٣م) فإنه أمر ألا يتعامل إلا بالدراهم المسكوكة بالديار المصرية والشامية ويبطل سوى ذلك ما خلا الدراهم التكرورية(٣) وتبعا للازدهار التجارى بين مصر وتلك الأقاليم فقد وجدت جاليات مصرية كثيرة فى المدن التجارية كما شهد بذلك ابن بطوطة والحسن الوزان عندما زار تلك المناطق سواء اكانوا هؤلاء المصريين من الفقهاء أو العلماء أو التجار ، ولقد كان منهم من سافر إلى نجيمى عاصمة البولالا أثناء السيطرة على ذلك الإقليم (كانم) بنفسه أو من ذهب يدعوه من سلاطين البلاد أو أمرائها أو صحبة القوافل ، ولقد كان وجود التجار المصريين فى المحطات التجارية الهامة على طريق القوافل مثل تكدا وغدامس وغات ومرزق وكوار وبلما واير Air ومن المدن الكبرى أمراً مألوفا وطبيعيا فى هذه المحطات وتلك المدن التى كانوا يترددون عليها ، ذلك لأن التجار المصريين كانوا يقصدون تلك الأنحاء بانتظام وبصفة مستمرة ودائمة(٤) .

ولقد كان التجار المصريين وغيرهم من التجار سببا فى أن انهالت الأرباح التجارية الطائلة على الطرفين وذلك لأن الحكام حين تيسرت لهم الرقابة الكاملة على طرق القوافل عند نهايتها فى نهاية الصحراء فاتسعت مدن الإمبراطورية وتيسر بعد ذلك للتجار احتكار السلع التى كانت ترد من مصر وغيرها ، فإن ذلك قد أثر فى غنى الإقليم كله .

---

(١) نعيم قداح : مرجع سابق ص١٢٦ .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٦ ص٣٠٢ .

(٣) محمد محمد أمين : مرجع سابق ص٢٩٦ .

(٤) سر الختم عثمان : مرجع سابق ص١١٣ .

والذى لا شك فيه أنه حتى بعد سقوط القاهرة واحتلال العثمانيين لمصر وقضائهم على دولة المماليك (١٣٨٣هـ - ١٥١٧م)فقد استمرت القوافل فى حركتها السابقة بين مصر وبلاد السودان الذى كانت تسيطر على معظم جهاته انذاك دولة البولالا ومع أن العثمانيين فى فتوحاتهم قد نجحوا فى السيطرة على مصر والشام مفتاح التجارة العالمية فى العصور الوسطى إلا أنهم قد أخفقوا فى أن يحلوا محل المصريين فى السيادة الإقتصادية لاختلافهم عن المصريين والعرب التجار بالفطرة وقد بذلوا جهودا طيبة لتشجيع التجارة ولكن أسواق الشرق العربى قد انهارت وفقدت اهميتها فى التجارة العالمية التى انتقلت إلى غرب أوربا وبمجيء الأتراك العثمانيين إلى حكم الولايات العربية ومن بينها مصر ، صارت هذه الولايات لا أهمية لها فى الناحية الاقتصادية فقد أهملت طرق القوافل التجارية القديمة وكان من نتيجة ذلك أن تدهورت مصر إلى هوة الخراب الاقتصادى ثم اضمحل شأنها وبالرغم من هذا فقد بقيت لمصر تجارة ترد إليها من أواسط أفريقيا حيث سلطنة البولالا وغيرها من السلطنات الإسلامية الأخرى .

وهكذا لعبت التجارة والتجار المصريين دوراً هاما فى حركة الإقتصاد والسياسة والثقافة والفكر والعلم والدين فى سلطنة البولالا وذلك بما لهم من خيرات واسعة فى هذه المجالات المتعددة وهكذا إذا كانت مصر قد ارتبطت بسلطنة البولالا بروابط سياسية وثقافية واقتصادية أشرنا لها فى هذا الباب ، إلا تلك الروابط والصلات العميقة كانت على درجة عالية من العلاقات والصلات مع طرابلس حيث أن تلك المناطق كانت أقرب المناطق إلى البولالا حيث بلما آخر حدود البولالا شمالا ثم منها إلى كوار ومرزق وفزان وزويلة تلك المحطات على الطريق إلى طرابلس كانت من المحطات الهامة على ذلك الطريق إضافة إلى كثير من أهل البلاد تاجروا مع اقليم فزان ورحلوا إليه بطلب العلم والدراسة وتلقى العلوم الإسلامية ودراستها على رجال هذه المدينة حيث شهد القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) شهرة هذه المدينة ومن شد إليها الرحال للتعليم والتجارة [١] ، كما أنه لا شك أنه كانت هناك مراسلات دبلوماسية وسفارات مع طرابلس حيث أن الصلات والعلاقات السياسية قديمة وترجع إلى عصور نشأة الدولة البولالية .

وهكذا ارتبطت دولة البولالا بعلاقات طيبة مع تونس ومع سلاطينها من الحفصيين وغيرهم[٢] ولا شك أن كثير من التجار والعلماء ورجال الدين والفقهاء قد رحلوا من فزان وطرابلس وتونس إلى تلك الأقاليم وهكذا ارتبطت البولالا ربما بسلطانات الواداى وباجرمى

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٦ . صـ ٤١٢ .

(٢) السلاوى : الإستقصا فى اخبار المغرب الأقصا . صـ ٤٩ .

ودارفور وغيرها من السلطنات الإسلامية الأخرى ، كما ارتبطت بعلاقات خاصة مع برنو لا سيما ما أشرنا إليه سابقا فى فترة الصراع مع الكانمبو .

وهكذا لم تكن سلطنة البولالا بمعزل عن العالم الخارجى بل اتصلت تلك القوى الإسلامية المعاصرة بمصر وبلاد المغرب العربى والسودان الشرقى وبلاد المشرق الإسلامى ، ومن هنا كانت علاقات وثيقة مع البلدان المجاورة وغير المجاورة .

***

الباب السابع

نهاية سلطنة البولالا



إذا كانت فترة الربع الأخير من القرن الرابع عشر الميلادى ، الثامن الهجرى قد شهدت ظهور بسلطنة البولالا على مسرح الأحداث السياسية فى السودان الأوسط حيث سيطروا على عدة قبائل كانت تسكن حول بحيرة فترى ومن ثم إتخذوا لهم مركزا قويا على حدود البحيرة والمنطقة الواقعة حولها[١] .

كذلك كانت قمة قوتها عندما قام السلطان عبد الجليل بن جل سيكوماسى سلطان البولالا بطرد السلطان عمر بن عثمان بن إدريس (٧٩٦ - ٨٠٠هـ / ١٣٩٣ - ١٣٩٧م) من كانم والرحيل عام ١٣٩١هـ من كانم أرض أجداده حيث رأى أنه لا قبل له بمواجهة قوات البولالا ، ومن ثم كانت ضرورة مغادرة كانم حيث لم يعد يطيب لهم المقام فيه وهكذا اجبر البولالا أسرة سيف إلى نقل مقر الحكم من نجيمى عاصمة الكانم إلى كاجا Kaga فى اقليم البرنو[٢] إلا أن تلك السلطنة البولالية وسيطرتها على أقليم كانم لم يدم طويلا إذ شهد عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م قيام السلطان إدريس بن على غازى باستعادة مقاطعة كانم أرض أجداده من يد البولالا بعد أن حقق انتصاراً ساحقا على قواتهم واستطاع أن يفتح مدينة نجيمى العاصمة القديمة لإمبراطورية كانم - برنو كما استطاعت جيوشه أن تطرد البولالا نهائيا من كانم وإعادتها إلى حظيرة الإمبراطورية كذلك فإن عصر السلطان إدريس الوما (١٥٧٠ - ١٦٠٣م) قد شهد القضاء النهائى على قوة البولالا[٣] بحيث لم تعد تسمع لهم عن قوة عسكرية منتصرة على مسرح الأحداث فى السودان الأوسط ذلك لأن عام (١٠٠٠هـ / ١٥٩٣م) قد شهد توجيه ضربة قاضية قام بها ذلك السلطان البرنوى على أرض البولالا فى كانم حيث ضمها نهائيا لحكم برنو المباشر ولم يعد هناك أى وجود لأثر البولالا فى كانم[٤] .

وهكذا فإن الفترات التاريخية اللاحقة قد شهدت انكماش قوة البولالا وضعف سلاطينها وخضوعها لنفوذ وتدخل واداى التى كانت إلى الشمال الشرقى منها حيث أننا نجد فيما ذكره بالمر فى حديثه عن سلاطين تلك السلطنة أن القرن الثالث عشر الهجرى ، التاسع عشر الميلادى قد شهد تدخلا سافرا فى الشئون الداخلية من قبل واداى بحيث أصبح لها القوة فى عزل أمير وتعيين أمير آخر بدلا منه ، بل القيام بحبس بعض الأمراء فى عاصمة واداى [٥] وذلك عندما حدث الصراع بين أبناء السلطان جراب بن السلطان موسى

(1) Palmer, R : The Bornu Shara and sudan, P . 100.
(2) Meek, C . K : The Northern tribs of Nigeria .vol . 2 P . 70 .
(٣) على أبو بكر : مرجع سابق : ص٣٤ .
(4) Ahmed Ibn Farthra : Opcit P . 54 .
(5) Palmer , R : Sudanese Memores . vol 2 . P 31 .

بن جراب الفيل وهما الأمير حسنى بكيوما Bekuma والذى حكم سبع سنوات ومن ثم دارت رحى الحرب الداخلية بينه وبين أخيه السلطان جودى Gudei والذى حشد قوات كثيرة ضد أخيه السلطان حسن بن جراب ولكنه انهزم لكنه عاد الكرة عليه ثانية حتى استطاع أن يحقق انتصارا ساحقا عليه ، لكن عندما علم السلطان يوسف سلطان واداى بتلك الأحداث ويبدو أنه كان يتمتع بنفوذ كبير فى سلطنة فترى فإنه أرسل رسالة إلى السلطان جادى قاضى وهذه الرسالة مع رسول يدعوه فيها أن يحضر لتوه إلى عاصمة واداى مدينة ابيشى Abeshe ومن ثم قام السلطان قاضى بالوصول إلى العاصمة الودابة ابيشى والمثول بين يدى السلطان يوسف[1] ودخل الرسول على السلطان يوسف حيث أخبره بقدوم السلطان البولالاى قاضى والذى قام سلطان واداى بإرساله إلى منزل جيراما Jerama الذى يبدو أنه كان ضيافة أو سجن حيث قضى هناك سبع سنوات ، لكن عندما توفى السلطان حسن بوركوما الذى يخضع لنفوذ واداى ويرضى عنه السلطان يوسف ، فأن ابنه ماننا جيرا Maina Jiral نجح فى الإستيلاء على الحكم حيث استطاع أن يحكم سلطنة البولالا ثلاث سنوات[2] .

لكن السلطان يوسف هاجم أراضى فترى ودخل العاصمة وأخذ الأمير ماننا جيرا أسيرا إلى عاصمة واداى ابيشى وسجنه هناك وقام السلطان يوسف بدوره باخراج السلطان قاضى والذى أخذ أسيرا لديه باطلاق سراحه وارساله إلى فترى وجعل منه سلطانا على جاو Gaoوحكم هذا السلطان ثلاثة عشر عاما .

لكن بدأت الحروب الداخلية والفتن والدسائس تعمل دورها فى انهيار بقية صرح الأسرة ومن ذلك فإننا نجد أبناء السلطان موسى بن جراب الفيل يثيرون المتاعب والقلاقل أمام السلطان قاضى بعد أن قام هؤلاء الأبناء بمهاجمة فترى والعاصمة جاو ولكن السلطان قاضى استطاع أن يهزمهم ومن ثم اضطروا إلى العودة ادراجهم من الأماكن التى قدموا حيث مناطق غرب فترى ، لكن سلطان واداى السلطان يوسف نفسه قام بدوره بالقبض على زعيم هؤلاء الأبناء وهو أبو شيخو Shekhi وقام بسجنه فى ابيشى حيث مات هناك[3] لكن فى نفس الوقت فإن السلطان يوسف قام بارسال ماننا جلى ابن أبو شيخو من أبو بشى إلى فترى والقدوم إلى مدينة مادوجو وذلك بصحبة جيش جراب حيث هاجم السلطان قاضى ودارت بينهما معركة جرح فيها السلطان قاضى وقتل ماننا جلى Maina Jili وظل السلطان قاضى يحكم البلاد حتى قدوم قوات الاستعمار الفرنسى .

---

(1) Palmer, H : opcit . P 31 .
(2) Barth , H opcit : vol 3 . 597 .
(3)Palmer, H opcit . P 31 .

وقد شهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى ظهور رابح الزبير كقائد أفريقى فى منطقة غرب سودان وادى النيل (١٨٧٨ - ١٩٠٠) حيث ذهب رابح الزبير غربا واستعد لمحاربة الفرنسيين المستعمرين المتوجهين من الكونغو الفرنسى وتشاد للسيطرة على واداى وفترى ، واستطاع رابح فى عام ١٨٩٢ أن يعبر أراضى باجرمى بعد سيطرته على اقليم فترى[١] حيث اسشتطاع عبور نهر شارى والإتجاه نحو برنو بعد أن أخضع فترى وباجرمى .

وبعد أن ضم باجرمى ومنطقة فترى حيث نهر ياوى فإن رابح اتجه إلى برنو واتخذ مدينة داكوا Dikwa عاصمة له واستمر يحكم تلك المدينة ست سنوات ووقف رابح بالمرصاد لشيوخ تلك المناطق حيث قضى على أية قوة تظهر فى البلاد حتى سيطر سيطرة نهائية على البلاد عام ١٨٩٣م .

وكانت حركة الكشوف الجغرافية لأفريقيا قد أدت إلى تسابق القوات الأوربية المستعمرة للسيطرة على كل أرجاء القارة ، وكان الإستعمار الفرنسى له نصيب الأسد فى الاستعمار للعديد من البقاع لاسيما بعد أن تمركز الفرنسيون فى شمال غرب أفريقيا ومن ثم بدأوا يجهزون للتوجه نحو الداخل حيث بحيرة تشاد واذا كانت عملية مد النفوذ الفرنسى إلى داخل القارة قد توقفت لفترة طويلة إلا أنها نشطت فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر حين هزمت فرنسا فى الحرب الفرنسية الألمانية فى عام ١٨٧٠م فأرادت أن تعوض مركزها المنهار فى القارة الأوربية بالإتجاه إلى القارة الأفريقية لاسيما بعد أن خسرت وفقدت أقليم الإلزاس واللورين ، وكان ذلك الاستعمار يبغى السيطرة فى أفريقيا والإتجاه نحو الداخل يجرى تحت سمع وبصر الدول الأوربية التى كانت راضية عن أعمال فرنسا لاسيما المانيا التى كانت منصرفة إلى تدعيم ما كسبته من الوحدة الألمانية ونرى فى انشغال فرنسا بشئونها الأفريقية ما يلهيها عن الإنتقام لخسارة اللزاس واللورين .

ولما اانتهى مؤتمر برلين (١٨٨٤ - ١٨٨٥م) إلى اباحة الإستيلاء على أجزاء من ساحل أفريقيا على شرط تدعيم ذلك الإستيلاء بقوة فعلية بادرت فرنسا باعلان حمايتها على هذه الأجزاء الأفريقية وكانت فرنسا قبل ذلك بقليل قد دخلت إلى مدينة باماكو على الجزء الأعلى من النيجر فارسلت الكابتن بورجنه Borgnis إلى السلطان أحمد والذى كان يحكم المنطقة بين السنغال والنيجر ووقعا معاهدة وضعت بلاد هذا الزعيم تحت الحماية الفرنسية وكان ذلك فى عام ١٨٨٧م .

على أن أعظم قوتين وقفتا فى وجه القوات الفرنسية الزاحفة نحو الشرق كانتا قوة رابح الزبير السودانى وقوة السنوسيين [٢] .

---

(1) Yever, G Kaneu . Encyc of Islam . P 747 .

(2) Charch, J . H west Africa P .P 315 - 323 .

ورابح هذا كان من أنصار الزبير ياث الذى فتح اقليم دارفور ومنحته الحكومة المصرية أيام الخديوى اسماعيل حكم هذا الاقليم وعمل فترة من الزمن تحت أمره ابنه سليمان الذى لم يلبث أن اصطدم بالحكومة المصرية فاتهمته بالثورة وقتلته فستقل رابح بجزء كبير من جيش سيده واتجه نحو الغرب فغزا دارفور ثم واداى وفترى واحتل البلاد التى حول بحيرة تشاد واتخذها مركز له وغزا باجرمى وبورنو وبنى لنفسه ملكا مستقلا فى عام ١٨٩٥م فكان لابد أن يصطدم مع الفرنسيين الزاحفين من الغرب حيث سواحل أفريقيا ولقد وجدت فرنسا فى السلاطين الذين استولى رابح الزبير على سلطانهم عضدا قويا لها ، فانضموا إلى صفوفها وبدأ التصادم الذى كان من جرائه تقهقر رابح نحو الشرق ، حيث بعثت فرنسا عام ١٨٩٩م قوات عسكرية بقيادة جينتل Gentil حيث تقدم من الكونغو الفرنسى إلى باجرمى ولكن فى عام ١٨٩٩م شن جنتل حربا ضد رابح ولكن رابح استطاع أن ينزل الهزيمة بإحدى فرق هذا الجيش وكانت قد تقدمت كتيبه بقيادة برونتى Bortonnet فتقدم جينتل بنفسه وهزم رابح فى كونو Kunu وبعد تلك الهزيمة تقدم الفرنسيون شرقا حتى وصلوا إلى واداى عام ١٨٩٩م بعد أن اتفقوا مع الإنجليز حيث دخل الإنجليز السودان فى يناير من نفس العام ، لكن الفرنسيين بعد ذلك اضطروا إلى التقهقر إلى حصن ارشمبول نظرا لتكاثف القوى الإسلامية ضدهم ، لكن بعد فترة وصلت امدادات فرنسية بقيادة جولاند ، ومنينر ، وفورفو ، ولامى ، حيث وصلت هذه الإمدادات إلى زندر ، وفى ٢٢ ابريل عام ١٩٠٠ التقت ثلاثة جيوش فرنسية قادمة من الجزائر ومن السنغال والكونجو برازفيل جنوبى بحيرة تشاد حيث دارت المعركة الفاصلة بين قوات فرنسا وقوات رابح الزبير حيث انتهت بهزيمة رابح وقام الفرنسيون بذبحه وهو نائم فى خيمته ليلا وخلص هذا الجزء لفرنسا [١] .

وكان القائد الفرنسى لامى الذى سميت عاصمة تشاد القديمة فورت لامى باسمه قد جرح جرحا مميتا فى هذه الموقعة قرب كوسيرى Kusseris[٢] وقد احتلت كوا عاصمة رابح فى مارس ١٩٠٠ لكن بالرغم من استرداد فضل الله بن رابح الزبير للعاصمة وكوا من أيدى الفرنسيين إلا أن ابن رابح الذى هرب من أول الأمر إلى الأراضى البريطانية فى يونيو من ذلك العام إلا أن الفرنسيين عادوا وتغلبوا عليه وقتلوه وبموجب معاهدة ١٥ مارس ١٨٩٤م قسم البريطانيون والفرنسيون والألمان مناطق بحيرة تشاد فيما بينهم وبذلك قام الحكم الفرنسى لهذه البلاد[٣].

---

(١) زاهر رياض : استعمار أفريقية . ص١٥٩ .

(2) Palmer, H : The Bornu shara and sudan P 269 .

(٣) تقويم البلدان الإسلامية . ص ٧٢ .

وفى تلك الإثناء كان يحكم السلطان الفترى حسن وقد حكم عشرين عاما ثم ظل ابنه كورما Chirma يحكم البلاد حتى عام ١٩٢٢م/ ١٣٤١هـ حيث عزله الفرنسيون وتولوا حكم ذلك الجزء بعد ضمه إلى تشاد حكما مباشرا تحت سيطرة الحاكم العسكرى الفرنسى وضمت تشاد للمستعمرات الفرنسية .

موقف السنوسية من التدخل الفرنسى :

وذلك بعد أن استطاع الفرنسيون القضاء على قوة الحركة السنوسية حيث كان السنوسيون يعملون فى الشمال فى المنطقة بين ساحل البحر الأبيض المتوسط وحوض النيجر وينشرون زواياهم فى واحات هذه الأجزاء وشاهدوا هذا الصراع بين رابح وأمراء البولالا والفرنسيين وفضلوا أن يقفوا على الحياد إلا أنهم سرعان ما وجدوا أن الخطر يتهددهم بعد أن انتصر الفرنسيون على رابح وقاموا بذبحه فبدأت الحرب بينهم وبين الفرنسيين وقاد السنوسيون حركةالنضال ضد الوجود الفرنسى الزاحف من الجنوب ودخلوا معهم فى عدة معارك وسرعان ما سقطت المراكز السنوسية فى أيدى الفرنسيين خلال عام ١٩٠٢ ، ١٩٠٣م وانتهى الأمر بانسحاب السنوسيين إلى الشمال وبسطت فرنسا سيطرتها على تلك الأقاليم .

وبذلك طويت صفحة من صفحات النضال الإسلامى قامت به سلطنة البولالا منذ القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) حتى القرن العشرين الميلادى (الرابع عشر الهجرى).

***

سلطنة رابح الزبير

إن الحديث عن نهاية سلطنة البولالا وانتهاء وجودها كقوة من القوى فى السودان الأوسط تقتضى الحديث عن التدخل الإستعمارى الفرنسى فى المنطقة وكيف تم عزل آخر سلاطين البولالا عام (١٩٢٢م / ١٣٤١هـ) كذلك فإن ذلك يقتضى الحديث عن سلطنة رابح الزبير حيث كان تكوين تلك السلطنة الكبيرة من الدوافع القوية التى حركت الحركة الإستعمارية للاحتكاك به حتى القضاء عليه ،

فنحن نعلم أن الزبير باشا كان حاكما من قبل الحكومة المصرية على اقليم بحر الغزال فى السودان ، إلا أنه الحكومة المصرية فى عهد الخديوى اسماعيل صرفته عن الحكم واستعانت برجل ايطالى الأصل اسمه غس باشا واعتقلت الزبير ومات فى مصر ، فثار ابنه سليمان انتقاما لأبيه فانهزم وقتل وتفرق القوم الذين كانوا حوله وحول أبيه ومنهم عبد الزبير واسمه رابح حيث انفرد بنفسه وتبعه كثيرا من الضباط والجنود الذين كانوا مع الزبير فحشد ثمانية بيارق (فرق) كل بيرق مائة وعشرين رجلا أو ما ئة وثلاثين رجلا مسلحا ووقع هذا عام ١٨٧٩م حيث باشر رابح بهذه القوة غزواته الشهيرة غربا ولقبه رهطه بلقب السلطان رابح وهكذا كان مبدأ أمره .

وقد كتب كثيرا من الأوربيين عن رابح هذا مؤلفات كما تمت فيه بعض الدراسات الأكاديمية مثل الماجستير والدكتوراه ومنهم كاتب الألمانى ماكس أو بنهايم وهو كتاب رابح وبلاد تشاد كذلك كاتب الفرنسى Gentil الذى قاتل رابح واستطاع أن يهزم جيشه سمى كتابه (سقوط سلطنة رابح) وكذلك ألف الفرنسى دوجارى Dujarrie كتابا سماه (حياة السلطان رابح) وغير ذلك من المؤلفات والمقالات[١] .

وأول ما بدأه رابح بالعمل كان فى دار مانفا إذ منها غزا غزوة فى بلاد دارفور ثم فى وادای وكانت وادای أحدى بلاد السودان الأوسط تقع بين دارفور فى الشرق والبرقوق الشمال ، والكانم والباجرمى فى الغرب والكونغو الفرنسى فى الجنوب ومساحتها حوالى أربعمائة وخمسين كيلو متر مربع (٤٥٠ كيلو متر مربع) وأهلها مليونان ونصف مليون سودانيون مختلطون بعرب كلهم مسلمون والطريقة السنوسية هى السائدة بينهم وأراضى وادای خصبة فى الوسط والجانب الشرقى وتتكون مجموعات سكان الإقليم من جماعات

---

(١) شكيب ارسلان : حاضر العالم الإسلامى جـ١ . ص٣٢٥ .

غير متجانسة وكان على هذه الجماعات أن تعمل جنبا إلى جنب مع بعضها فى نطاق واسع غير محدد وهذا بدوره بسبب الضعف والهيكل الواهن للبلد ، ويجد المرء أكثر من خمسة عشرة لغة فى الإقليم ، وكان نظام الحكم مركزيا وينقسم السكان إلى قسمين أولها الجماعات من السكان الأصلية أو من الزنوج فى المناطق المجاورة وثانيها العرب ، ونجد أن سكان واداى حتى حدودها الأصلية وهم الذين يتكلمون لغة واحدة ويطلق عليهم دار مايا وتتكون هذه من عدد فى القبائل أهمها المالتقة ، والمادالة ، الكودية سكان الجبال ، ويطلق العرب على الآخرين أبو سنون لأن اسنانهم حمراء لشربهم نوع من الماء ينبع من جبالهم والقرعان والزغاوة وغيرهم ، ومن العرب المساليت المسيرية زرق ، والمسيرية حمر ، خزام الزيود الزيادة ، العبيدية ، الحميد ، المحاميد وغيرهم الكثير من القبائل .

ويطلق على الزغاوة في واداى زخاوة ، وهؤلاء ومعهم القرعان يكونان قسما كبيرا من قبيلة التبد والتيبو التى تكن الصحراء شمالى واداى وهم أصحاب ماشية كثيرة [١] .

تم أننا نجد السلطان رابح يواصل غزواته غربا فى باطن السودان وجعل مركزه فى بلاد شارى ثم صعد فى نهر شارى إلى ضفته الشمالية ثم نزل إلى حفته الجنوبية وقام مدة بيلده كوتى وغزا بلاد سومراى والبولالا ومما زال فى غزوة إلى غزوة إلى عام ١٨٩٢م فأقام فى بلدة يوسو فى أرض فترى وهى على نهر شادى وجهز حملة على الباجرمى فاستولى عليها وهى اقليم على نهر شارى على الشاطىء الأيمن جنوب شرق بحيرة تشاد وقد كانت فى بادىء الأمر جزء من سلطنة فترى ثم اقتطعها منها السلطان إدريس الوما بمقتضى اتفاقية عام ١٥٩٣م بينه وبين سلطان البولالا ، وتقوم اقتصادياتها على زراعة الذرة التى تكون الغذاء الأساسى وبعض الحبوب الأخرى والخضروات وسكانها من السود السارا والماساد العرب والقولانى وتأسست حكومتها فى حوالى القرن السادس عشر الميلادى وكان لها فى بادىء الأمر حياة اقتصادية منتعشة ، غير أنها قد أصابها الركود بسبب حروبها مع الواداى التى استمرت حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان أول سلطان للباجرمى هو برنى بيسبى وعاصمتها ماسينة ويقيم السلطان ببلده بوجرمان على الضفة اليسرى من نهر شارى .

وقد حارب سلاطين باجرمى وحلفائهم فى الحكم قبيلة البولالا للحصول على استقلالهم وبسطوا سيطرتهم على ماسة عاصمة البولالا بعض الوقت وفتحوا حوض نهر شارى ومن بوسيه تحركوا إلى ماند يافا ونشروا الدعوة الإسلامية وكانت الباجرمى منذ عام ١٦٠٨م دولة إسلامية منتظمة غير أن بعض السلاطين اشتغلوا بالحروب ضد جيرانهم

---

(١) الشاطر بيصلى عبد الجليل : مرجع سابق ص٤٢٨ – ٤٢٩ .

فالسلطان بوركو ماندا (١٦٣٥ - ١٦٦٥م) اشتغل بحرب البرقو فى الشال وامتدت غزواته إلى شاطىء نهر شارى الغربى وصارت فى القرن التاسع عشر الميلادى ولاية تابعة لوادای (١) لكن عندما استولى عليها رابح الزبير ، فإن سلطانها التجأ إلى بلاد نهر شارى السفلى وجهز حملة على الباجرمى لكنه فشل ومن ثم التجأ إلى واداى ، لكن رابح استولى عليها عام ١٨٩٤م فوجه رابح بعد ذلك جهوده وغزوه إلى بورنو غربا فاستولى على بعض أجزاء منها ، لكن سلطان برنو أرسل إليه قوة يقودها أحد قواده وهو محمد طاهر ومالا كريمه فهزمها رابح وزحف رابح قاصدا كوكا عاصمة بورنو وذلك عن طريق نجالة فخرج هاشم سلطان برنو لقتاله والتقيا فى مدينة ام جيس فانكسر هاشم ودخل رابح مدينة كوكا واتخذ رابح مدينة ديكو عاصمة له وأقام فى برنو ، لكن أبو جبارى عم السلطان هاشم ناوش رابح للقتال ، ثم انيرى لمقاومة رابح زعيم دينى اسمه الشيخ أبو قنطور فصارت بينهما واقعة فى دجاجيبو إلى الشرق من ديكوا مع هذا بقى رابح سائدا وكان سلطان زندر يدفع إتاوة لسلطان بونو فلما استولى رابح على بورنو أبى دفعها له فخرج فضل الله بن رابح إلى سلطان زندر المذكور وقاتله فلم يظفر منه بطائل(٢) .

وبينما الأمور تسير على هذا المنوال ورابح يعمل على تأسس سلطنة إسلامية عظيمة فى تلك الأنحاء ، إذ به يفاجأ بالفرنسيين المستعمرين يزحفون إليه وقد هالهم ما وصل إليه رابح الزبير من مجد وانتصار فى تلك الأقاليم فقصدوا القضاء عليه قبل أن يستفحل أمره ، ففى ١٥ يونيو ١٨٨٩ وصلت طلائع الفرنسيين إلى أرض رابح للدخول معه فى قتال مباشر لضم أملاكه إلى مستعمراتهم (٣) .

وقد كان ذلك الزحف بقيادة الضابط برتيونة Bertonet إلى كونو ، فخرج إليه رابح بقوة صاعدا نهر شارى وما زال من بلد إلى بلد حتى وصل إلى كونو فلما علم الضابط الفرنسى بوصوله أخلى كونو واعتصم بهضاب عالية صالحة للدفاع وذلك فى بلاد نياليم لكن رابح قضى على كل هذه القوة وكذلك قضى على قوة سلطان باجرمى بقيادة سلطانها (جاورانغ) الذى كان حليفا للفرنسيين وذلك فى ١٧ يوليو ١٨٩٩م وعاد رابح إلى كونو فهاجمه الفرنسيين بقيادة جينتل فى ٢٧ اكتوبر فى السنة المذكورة فلم يستطيعوا دخول المدينة ولكنهم اضطروا رابح إلى اخلائها بنفسه فانحاز رابح إلى بلده ميلتو ثم قصد لوجون ، من جهة بحر الرقيق وعاد إلى عاصمته ديكو ولم يقم بها إلى شهرا وذهب يحشد قواته فى كوسيرى (٤) .

---

(1) Masson , J : La civilasation de chad . P . 95 .

(2) urvay , Y : histore de l Empire de Boronou . P 112.

(٣) زاهر رياض : استعمار أفريقية ص١٥٨ .

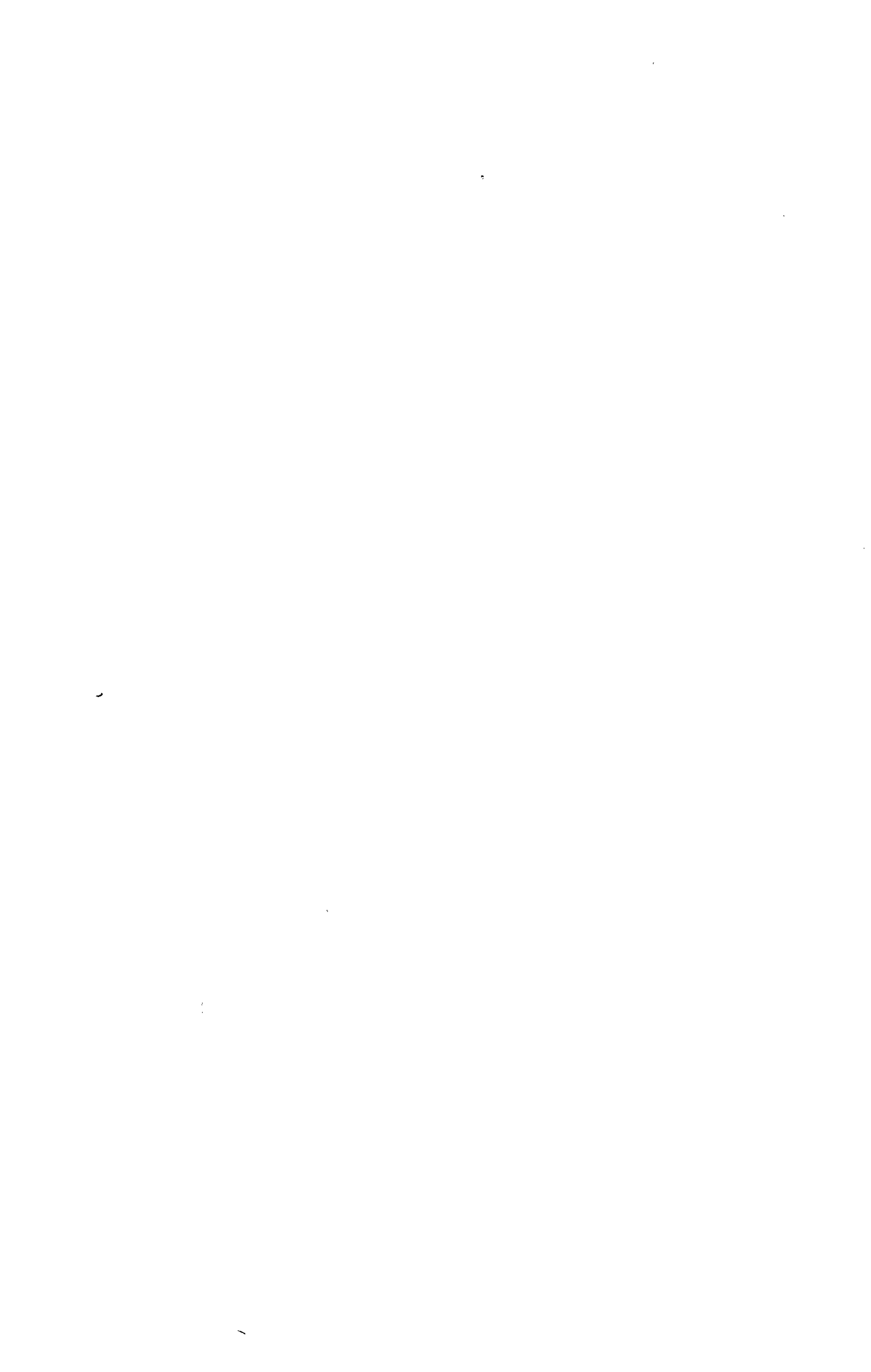
(٤) شكيب ارسلان : مرجع سابق ص٣٢٦ .

لكن زحفت إليه معا جنود البعثة الصحراوية بعثة أفريقيا الوسطى وبعثة شارى تحت قيادة جولاند وماتيه وذلك فى ١٠ ديسمبر ١٨٩٩م ثم فى السنة التالية ١٩٠٠ زحفت القوات أيضا ومعها قائدين آخرين بقواتها وهما فورد ، ولامى ، وجاء فضل الله بن رابح وناوش ماتيه للقتال وكانت قوات فضل لله ستمائة رجل مسلحين بالبنادق ، ثم بلغه أن لامى استولى على كوسرى فزحف إلى كوسيرى من الجنوب ثم اضطر أن يرجع إلى لوجون وجاء رابح بنفسه وخيم فى بلده لخنا ودارت رحى الحرب فانكسر رابح وقتل فى ٢٢ ابريل ١٩٠٠م ولكن رجاله قتلوا من الفرنسيين عدداً كبيرا منهم القائد لامى نفسه وقائد آخر اسمه كوانته وبلغ فضل الله خير مقتل أبيه وهو فى لوجون فاخلى هذه المدينة قاصدا ديكوا التى كان فيها أخيه نيابى فقصده الفرنسيين الى دكوا فخرج منها بدون قتال فتعقبه الفرنسيون بقوة ادركته فى ٢ مايو ١٩٠٠م فى مكان يقال له دجيميه . قد تركه إلى الجنوب فساروا وراءه إلى مكان يقال له ايشيخونة فلم يفوزوا منه بطائل ، ثم توقف فضل الله فى بلده تسمى برجامة وأخذ يحشد جنوده مراقبا حوادث بورنو[1] .

وكان سلطان بورنو (عمر سائدا يكرة الفرنسيين فعزله هؤلاء وولوا بدلا منه أخاه جرباى فقصده فضل الله وتغلب عليه فى موقعة نجالة ففر إلى كانم ، فأشتد عزم فضل الله وكشر عن ناب العداوة للفرنسيين ، وبعث إلى قائد منهم اسمه « روبيليو » يطالبه باسلاب أبيه التى أخذوها من كوسيرى ، فأرسل روبيليو ثلاثة رسل يعرض عليه الملاقاة ، فأمر فضل الله بقتلهم ، فقصده روبليه بجيشه وهزمه فالتجأ فضل الله إلى مستعمرة النيجر الإنجليزية ثم رجع إلى معسكرة الأصلى فى برجامة وهناك دخل فى مفاوضات مع الإنجليز ، وزاره الماجور ماك كلنبوك ثم بلغ فضل الله أن جرباى عاد إلى بورنو واستولى على عرشها فقصده وهزمه ودخل ديكوا فقصد الفرنسيون إلى ديكوا فوجدوا فضل الله قد برحها ، فأرسلوا حملة فى أثره دهمته فى بلدة فوجيه من أراضى المستعمرة الإنجليزية ، وقتل فضل لله فى المعركة وتشتت الذين كانوا معه ، ودخلوا إلى بلاد كيروى التى أهلها وثنيون فقاتلوهم بالسهم فاضطر تيابى بن رابح شقيق فضل الله أن يستسلم للفرنسيين وهكذا انتهت سلطنة رابح الزبير وابنائه كما انتهت سلطنة البولالا على أيدى قوات الإستعمار الفرنسى فى السودان الأوسط الذى شاركه رجال الإستعمار الإنجليزى فى تفويض عرش هؤلاء السلاطين المسلمين .

---

(1) Lebeuf , J : Histiore de la Region Tchadinne . P 256 .



الخاتمة

يتضح لنا من خلال تلك الدراسة عن سلطنة البولالا الإسلامية (٧٦٧ - ١٣٤١هـ/ ١٣٦٥ - ١٩٢٢م) كيف أن تلك السلطنة قد قامت على أكتاف ذلك الشعب الأفريقى الذى استمد اسمها منه أو من اسم زعيمها بابليا وكيف كانت هناك بحوثا عن أصولهم العرقية وكيف تعددت الآراء لكن مصدر أصولهم استمر خفيا فهناك من يقول أنهم نتاج اختلاط الأثيوبيون بالسود والعرب ، أو أنهم نتاج مصاهرة عرب الشوا الذين يقيمون حيث بحيرة تشاد مع الوطنيين الزنوج ، وهناك من يقول باختلاط البربر الطوارق مع الزنوج ، وهناك من يدعي أن نسبهم يصل إلى حمير اليمن وأنهم جاءوا من الشرق حيث يتصلو بسيف بن ذى يزن بالإضافة إلى انتسابهم إلى النسب القرشى وكيف استطاع هؤلاء الأقوام التمركز حول بحيرة فترى ثم بعد ذلك بسطوا سلطانهم على كانم بمساعدة عرب بنى جذام وفى ذلك يستدلون على أن نسبهم عربياً ، ثم كيف اتخذوا لهم عاصمة عند نهر شارى هى سامينا وكذلك عرفت العاصمة أيضا باسم داجو وهناك آراء تذكر أنهم شقوا طريقهم من الشرق إلى الغرب مع أبناء عمومتهم السيفيين والذين كانوا يتحركون سويا حتى وصلوا إلى فترى كانم فأقتسموها وكان احتلال البولالا للأراضى الواقعة حول بحيرة فترى وأبناء عمومتهم للأراضى الواقعة حول بحيرة تشاد وقد كان البولالا رعاة ابل وخيول وكانت مملكتهم تحد غربا بمملكة البرنو - كانم وتحد شرقا بالنوبة كما تحدها شمالا مصر .

ثم كيف تأسست تلك السلطنة واتسعت وامتد نفوذهم على المنطقة الواقعة حول بحيرة فترى ، ثم كيف كان القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) بداية ظهورهم كقوة ذات شأن ونفوذ وسيادة وكيف تحالف البولالا مع قبائل جذام العربية ثم تحالفوا مع القبائل الوطنية التى تسكن حول بحيرة تشاد وكيف استقروا فى مدينة ماساوا بالاك شمال بحيرة فترى وشرق كانم ، وكيف كان القرن الرابع عشر الميلادى ومع بدايته انتشر الإسلام على نطاق واسع بين صفوف شعب البولالا وكيف كان ذلك بداية ظهورهم على مسرح الأحداث السياسية فى السودان الأوسط وكيف حمل سلطانهم لقب ملك الناس واختلاطهم بالقبائل العربية من بنى جذام ، وأولاد حمد والتيبو ثم كيف ألموا باللغة العربية وإتخاذها لغة لهم والتحدث بها ، ثم كيف كان ذلك القرن قد شهد ازدياد قوة البولالا

العسكرية وارتفعت مكانتهم السياسية ، ثم كيف استغلوا تلك المكانة والقوة العسكرية ضد حكام كانم وزيادة الضغط على ابناء عمومتهم ثم كيف بدأ عمقهم الإسلامى والتاريخى من بداية جدهم الأكبر محمد الكبير اليمانى الذى قدم إلى منطقة نهر شارى ثم كيف اتخذ أحد سلاطينهم وهو السلطان جل مدينة ماسيا Masia مقرا لحكمه وكيف قام السلطان «جوراب أبو مانجو» بن السلطان مارشو بالوصول إلى منطقة بحيرة فترى ودخل فى معارك طاحنة وعنيفة مع السكان المحليين الذين كانوا يقطنون حول البحيرة ، ثم كيف صار له ولرعيته المقام حول بحيرة فترى حيث اتخذوا تلك المنطقة موطنا للإقامة ومن ثم عملوا على نطوير تلك المنطقة واعدادها للسكن واختلطوا مع سكانها وكيف تسلسل الحكم بعد ذلك فى ملوك البولالا وكيف بدوا فى التوسع والإتجاه غربا نحو أراضى كانم حيث تحركوا من الشرق فى اتجاه عاصمة كانم مدينة نجيمى واستطاع البولالا الوصول غربا إلى منطقة الألى « Alali » التى كانت تقع إلى الشرق من نجيمى العاصمة وقد اتخذ البولالا تلك المنطقة التى كانت تدخل فى حدود سلطنة الكانم مقر استقرار مؤقت لهم وإعادة تنظيم أنفسهم ، وكيف بسطوا نفوذهم على منطقة الالى وبعد ذلك دخلوا فى صراع عنيف مع أبناء عمومتهم ، كما أن نفوذهم امتد شمالا فى اتجاه شعب التيبو بل امتد إلى الشمال اكثر حتى ضموا منطقة اير Air بل امتدت إلى مونبو على النيل وامتد إلى جنوب طرابلس حيث كوار وفزان وزويلة ولقد اتاحت سيطرة البولالا على منطقة اولالى ومنطقة مانجا أن أصبحوا بذلك الوضع الجديد يسيطرون على شمال كانم الشرقى وقد تخلوا مايات كانم عن تلك المنطقة حيث تحركوا إلى مدينة وودى Wudi ، إلا أن البولالا زحفوا عليها مرة أخرى واضطر ماى كانم إلى ترك المدينة وأخذوا يتحركون فى الاتجاه نحو الجنوب الغربى وقد كانت تلك الإنتصارات فرصة طيبة لكى يتابع سلاطين البولالا الهجوم غربا خلف سلطان كانم ، وكان أن تولى عرش البولالا السلطان عبد الجليل ٧٦٧هـ - ١٣٦٥م وكانت فترة ظهور ذلك السلطان البولالى فترة قوة البولالا وظهورهم على مسرح الأحداث كقوة عسكرية وسياسية حيث بدأت فترى تكون دولة واسعة الأرجاء وتدخل فى صراع طويل مع شعب الكانمبو سكان كانم حيث حكم ذلك الزعيم القوى ستة وأربعون عاما استطاع خلالها أن يوطد ويقوى نفوذ البولالا على حساب أبناء عمومته ثم كيف استمر هؤلاء الحكام فى تولى مقاليد الأمور فى نهاية الأسرة البولالية من مسرح الأحداث السياسية .

وكيف بدأ الصراع مع مابات كانم بحيث بدأت تلك الدولة تدخل مرحلة الإنهيار والضعف وازداد خطر شعب البولالا سواء فى الأماكن التى استولوا عليها فى شرق وشمال كانم وكان عصر السلطان (دوناما دباليمى) هو آخر عصر القوة الكانمية التى استطاعت أن نقف فى وجه زحف البولالا وتمنعه من القضاء النهائى على كانم ، لكن التنافس بين أبناء

الأسرة الحاكمة فى كانم على تولى العرش واحاطة البولالا بالبلاد من الشرق وشعب الصو So الوثنى من الجنوب والذين كانوا يتربصون بكانم لحظة ضعف للتخلص من نفوذها أو القضاء عليها ويذكر أن قبائل البولالا قد زحفت على كانم لأنهم ثاروا على استبداد الأسرة الكانمية الحاكمة واعلنت الحرب عليهم واقتحمت عاصمتهم نجيمى وطردت الملوك من سلاطين كانم ففروا إلى غرب بحيرة تشاد حيث أرض برنو ، وكان السلطان عمر بن عثمان ابن إدريس (٧٩٦ - ٨٠٠ هـ / ١٣٩٣ - ١٣٩٧م) هو آخر سلاطين أسرة سيف فى كانم فقد اضطر إلى الإلتجاء إلى الأراضى التى تقع إلى الجنوب الغربى من بحيرة تشاد لأنه أحس أنه لا قبل له بمواجهة البولالا ، وحيث أنه لم يعد بطيب لهم المقام فى ذلك المكان وكان على السلطان عمر بن عثمان بن إدريس أن يتوجه إلى اقليم برنو غربى بحيرة تشاد واستقر فى مدينة كاجا وذلك بعد أن وجد السلطان وقومه المطرودين من كانم أنه من الصعوبة العيش بين أنهار كوتوكو ونهر لوجون ومن ثم دخلوا فى صراع مرة ثانية مع شعب الصو الوثنى ، استمر فترة طويلة ولكن فى النهاية قدمت أعداد كبيرة من شعب الكانمبو خلف الأسرة الحاكمة حيث عاشوا شعبا زراعيا وكانت حياتهم أكثر استقرار على ما كانوا عليه من قبل فى أرض كانم وبمرور الزمن أصبحت برنو دولة قوية غيرت الأحوال السياسية فى تلك المنطقة .

لكن ذلك الشعب لم يفكر فى العودة فى تلك الظروف بسبب تحكم البولالا الذين ضموا تلك الأراضى لسلطتهم بالإضافة إلى الأراضى الواقعة حول بحيرة فترى بحيث أصبح من الصعب على أية قوة أخرى أن تتغلب عليهم فى ظل ظروف ضعف حكام بورنو الجدد.

ومنذ عهد السلطان عبد الجليل البولالى عاد الماى عمر بن عثمان بن إدريس ، بدأ حكام البولالا الحكم الشامل للكانم ، لكن على الجانب الآخر بدأت فترة كفاح ملوك البورنو المطرودين من كانم العمل على استعادة أراضى أجدادهم من أيدى البولالا .

لكن سلطنة البورنو بدأت تدخل مرحلة جديدة من الإزدهار فى عهد السلطان على غازى الذى تولى الحكم (٨٧٧ - ٩٠٩ هـ / ١٤٧٢ - ١٥٠٤م) وذلك بأن قام السلطان على غازى بارسال حملات عسكرية شمالا إلى كوار وذلك لمحاولة قطع طرق الإتصال بين البولالا وبين الشمال بل أنه كان أول سلطان من سلاطين الأسرة السيفية المطرودة من كانم يفكر فى استعادة تلك البلاد من البولالا ، بل أن ذلك السلطان تابع سياسة أسلافه من حكام برنو الذين طردوا من كانم فى محاولة استرداد ذلك الإقليم من البولالا وقد وفق فى ذلك أكثر توفيقا حيث جهز جيشا ضخما استطاع به أن يقضى على قوة جيش البولالا الذى كان يقوده السلطان بارىء البولالى مع أن السلطان على غازى لم يستطع أن يدخل نجيمى العاصمة ، بل اكتفى بما أظهره البولالى من هزيمة امام قواته

والقضاء على القوة الرئيسية المتمركزة فى كانم إلا أنه لم يستطيع أن يكسر قوة البولالا نهائيا .

وجاءت فترة حكم السلطان إدريس بن على غازى (دوناما) والذى حكم (٩١٠ - ٩٣٢هـ / ١٥٠٤ - ١٥٢٦م) حيث أن ذلك السلطان قد أيدى اهتماما خاصا بتحقيق حلم اسلافه فى استعادة مقاطعة كانم أرض اجداده من أيدى البولالا ، بل أنه لم يأتى عام ٩٢٣هـ / ١٥٠٧م حتى أصبح حلم أجداده حقيقة واقعة وذلك مما يدل على أنه اكمل مسيرة أبيه حيث أنزل هزيمة ساحقة وكبرى بحاكم البولالا ، إلا أن الحاكم البولالى أعلن الدخول فى طاعة السلطان إدريس بن على وأن يخضع له كل الخضوع وأن يدفع الجزية .

ومن ثم فقد استطاعت جيوش إدريس المنتصرة أن تطرد البولالا نهائيا من العاصمة ومن كل كانم وإعادتها إلى حظيرة الإمبراطورية ومن ذلك التاريخ أصبحت كانم جزء من امبراطورية برنو بعد أن كانت برنو جزء من امبراطورية كانم .

ولكن رغم هذا الإنتصار فقد ظل البولالا شوكة فى جنب برنو على الرغم من أن السلطان إدريس بن على قد ظفر بالعديد من الانتصارات عليهم ، إلا أن البولالا ظلوا يسببون المتاعب للسلطة المركزية مما اضطر خلفاء السلطان إدريس ، أن يتابعوا الضرب على أيدى البولالا وانزال الهزائم بهم وكلما أحسو بأن هناك خطرا يأتى من الشرق حيث أرض كانم .

ومن ثم كان عصر السلطان إدريس الوما هو العهد الذى استطاع فيه السلطان إدريس الوما أن ينهى إلى الأبد قوة البولالا وضم كانم نهائيا إلى حكمه المباشر بعد أن عين فى حكمها حكاما من طرفه يخضعون له بعد أن قسم كل أراضى كانم إلى عشرة أقسام . وبذلك انتهى الصراع بين البولالا وحكام كانم إلى الأبد وتقوقع البولالا داخل أراضى فترى.

ولما كان ذلك البناء البولالى قد تم واتسع وسيطر على هذه الأقاليم الواسعة فأنه كان لابد من معرفة الأحوال العامة التى كان عليها ذلك الشعب فى معيشته داخل تلك الأراضى الواسعة الممتدة حول فترى وتشاد ولقد كان شعب البولالا بعمل الكثير منه بالرعى وخاصة رعى الإبل والأغنام والخيول اضافة إلى أن هناك مجموعة أخرى كانت تعمل بالزراعة حول حوض بحيرة تشاد فترى وفى أحواض الأنهار التى تصب فيها اضافة إلى أن بعض السكان كانوا يعملون فى حرفه صيد الأسماك وقد انتشرت أنواع الزراعات المختلفة كما أنهم اشتغلوا بتربية أنواع عديدة من الحيوانات ، كما كانت لديهم بعض الحرف الصناعية وخاصة صناعة القوارب والسفن وصناعة الفخار والخزف وصناعة الحديد ، وصناعة المنسوجات التى كانوا يطلقون عليها (دندى) كذلك عرفوا صناعة النحاس الذى كان يصل إليهم من

تكدا إلا أن كل تلك الأحوال العامة فى البلاد ما كان لها أن تزهو لولا وجود الطرق والمسارب الصحراوية التى كانت تصلها بالعالم الخارجي لاسيما ذلك الطريق الذى كان يمتد من داخل أراضيها إلى بلما وكوار وزويلة وفزان وطرابلس ثم يأخذ اتجاه اخر عبر واحات مصر إلى درب الأربعين ثم وصولا إلى الأراضى المصرية حيث كان ذلك الشريان الرئيسى الذى يربطها بالأقطار المجاورة سببا فى ازدهار الحالة الإقتصادية والإجتماعية والثقافية فى سلطنة البولالا حيث كان التجار المصريون والطرابلسيين يجوبون تلك الأنحاء وصولا إلى كل جزء من أجزاء سلطنة البولالا ، بالإضافة إلى أنه لا يوجد أدنى شك فى ذلك الطريق يعتبر أسهل الطرق الصحراوية حيث أن استعماله كان دائما ومتصلا ، ولقد لعب هذا الطريق دورا هاما فى سلسلة المعابر الصحراوية التى استخدمتها القوافل والتى زادت فى طبيعة العلاقات بين شمال القارة وغربها ومن هنا كانت العلاقات التجارية منتظمة عبر الصحراء ، وبذلك كانت فترى - كانم ملتقى عدة طرق اساسية للتجارة الدولية وتجارة الصحراء فى السودان الأوسط والغربى وعلى هذا فإن تلك الصورة عن الحياة العامة فى سلطنة البولالا نوضح الدليل القاطع على أن تلك السلطنة قد مارست حياتها الطبيعية اليومية من خلال استغلال الطاقات الموجودة داخل أراضيها وكذلك استيراد ما تحتاج إليه من منتجات أخرى لم تكن متوفرة فى أرضيها وكانت الضرورة القصوى تحتم استيرادها لاسيما أن المجتمع كان يحتاج إليها .

كذلك فإن القاء الضوء على الحياة العلمية والثقافية والفكرية فى سلطنة البولالا ذلك لأن السلطنة ظهرت أول ما ظهرت كسلطنة إسلامية قام هذا الشعب باعلاء راية الإسلام فى تلك الناطق ، لاسيما أن سلاطين البولالا كما أشار إلى ذلك الحسن الوزان كانوا يشجعون قدوم العلماء من مصر والبلاد المجاورة وأن ذلك كان يؤثر تأثيرا بالغاً فى الحركة الفكرية والعلمية والثقافية وذلك بنشر الإسلام وتعليم ابناء ذلك الشعب مبادىء القراءة والكتابة وحفظ آيات القرآن الكريم وغيرها من العلوم الإسلامية ، ،من هنا كانت هناك حياة علمية وفكرية وثقافية لكن ربما لا تصل إلى درجة ما وصلت إليه تلك الحياة العلمية فى مالى أو سنغاى أو برنو أو امارات الهوسا ، لكن رغم طابع البداوة والعسكرية التى اتسم بها الشعب البولالى إلا أنها أدت دورا ثقافيا ودينيا هاما حيث أصبحت منطقة بحيرة فترى وتشاد مصدرا من مصادر الإشعاع الحضارى الإسلامى فى السودان الأوسط وكذلك لاتصالها بمراكز الثقافة الإسلامية فى مصر وطرابلس وتونس والسودان الشرقى بحيث لم تكن هناك فواصل طبيعية مما ساعد على استيعاب وهضم كثيرا من معالم الحضارة الإسلامية العربية ومن هنا كان لهذه الحضارة مآثر فى تلك المناطق .

ولقد أدى انتشار العقيدة الإسلامية بين الشعب الفترى والكانمبو إلى انتشار اللغة

العربية فى سلطنة البولالا حيث سارت العقيدة الإسلامية سارت معها اللغة العربية لغة القرآن الكريم ومن هنا صارت اللغة العربية هى لغة التعليم ولغة الدولة فى المراسلات الدولية .

وعلى هذا فقد ظهرت فى سلطنة البولالا العديد من المراكز الإسلامية التى قام رجال الإسلام بالتدريس فيها وتعليم كل العلوم الإسلامية المعروفة فى ذلك العصر ، بل أن تلك السلطنة استطاعت من خلال مكوناتها الشخصية ومجتمعها الإسلامى الجديد أن تحدد طريقها بعد أن خلقت شخصيتها وارتضى غالبية شعبها الدين الإسلامى عقيدة له ، واتخذ المذهب السنى ومذهب الإمام مالك مذهبا له ، بل أن الفكر والثقافة والحضارة والعلم لم يكن فى دولة البولالا وفقا على طائفة معينة من الشعب بعد أن قرب السلاطين اليهم العلماء ورجال الدين والمثقفين بل طلبها وشجعها الحكام الذين أكثروا من حفظ القرآن الكريم ودراسة العلوم الإسلامية .

ولقد اتصل سلاطين البولالا رغم طبيعة البدواة التى كانت فيهم وميلهم للحروب واتقانهم للفنون العسكرية واتصالهم بالخليفة العباسى فى القاهرة كما أنهم حرصوا على الإتصال بالعلماء ورجال الدين وأخذ مشورتهم فى كثير من الأمور الهامة فى البلاد وهذا دليل قوى على انتشار الثقافة لعربية الإسلامية ومن هنا فقد أوجد الإسلام بين مصر وبلاد المغرب العربى وسكان تلك المناطق نوعا من الإنسجام الثقافى وترك أثراً عميقا على طابع الحياة اليومية وساهم فى اثراء الحركة العلمية والفكرية والثقافية فقد اعترف الأفارقة للعرب المصريين والأفارقة سكان الشمال الأفريقى بالتفوق الثقافى والعلمى لاسيما بعد أن تلقوا مبادىء العلوم الإسلامية ودراسة العلوم الإسلامية على أيديهم ولقد خطا التعليم الإسلامى خطوات واسعة فى تلك الأنحاء ، حيث وجدت أنواع من المدارس والكتاتيب على أقل تقدير تقوم بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم العلوم الإسلامية بحيث لم تخلوا اصغر قرية إسلامية من وجود فقيه يعلم الصغار علوم الدين الإسلامى وتحفيظ القرآن الكريم وهذه صورة تطالعها فى كل أنحاء العالم الإسلامى وليس فى سلطنة البولالا فقط وقد أدى هذا إلى ظهور طبقة متوسطة مثقفة ومتعلمة تؤدى دورها فى المجتمع مثلما هو معروف فى مصر بلاد المغرب العربى وبقية المجتمع الإسلامى ومن هنا قربهم سلاطين البلاد إليهم وعاملهم السلاطين بكثير من الاحترام والتقدير ومن هنا فقد احدث التعليم تطورا هائلا فى شؤن البلاد وتحرك الطلاب أفواجا إلى مصر وطرابلس وفزان وزويلة فى أعداد كبيرة ومن هنا ظهرت فى المجتمع تلك الفئة المثقفة التى أدت دورها وفق ظروف ومتطلبات الحياة اليومية الإسلامية ، كذلك فإن العقيدة الإسلامية قدهذبت سلوكهم وتصرفاتهم وحياتهم اليومية ،

وهكذا أدت الاحتكاكات الحضارية والإتصالات العلمية والزيارات التى حدثت من هنا وهناك بين الكانمبو والعرب ثم ما حدث من التوافق والنصهار بين الشعوب والقبائل العربية

المهاجرة والنازحة إلى ذلك الإقليم القريب من مصر وليبيا حيث يعتبر أقليم فترى - كانم أقرب بلاد السودان الأوسط والغربى إلى مصر وليبيا ، وعلى هذا فأنه يمكننا القول فى اطمئنان أن هذه الثقافة العربية الإسلامية التى انتشرت فى ذلك الإقليم كانت ثقافة إسلامية عربية ذات طابع عربى إسلامى صرف ، بحيث لم تداخلها أية تأثيرات أخرى وذلك بسبب واضح وهو أن هذه الشعوب الزنجية التى اعتنقت الإسلام فتشربت ثقافته العربية الإسلامية لم تكن لها تقاليد ثقافية بالمعنى المفهوم اللهم الا مجموعات من الأساطير والقصص والحكايات الشفهية ومن ثم حملت تلك الثقافة العربية إلى بلادهم وتقبلوها كما هى حيث كانت بالنسبة لهم الأمثل .

ولقد قدمت سلطنة فترى - كانم ، العديد من العلماء ورجال الدين والفكر والثقافة والذين بعثوا دوراً بارزاً فى الحياة الإسلامية والثقافية ليس فقط فى بلادهم وانما على مستوى العالم الإسلامى حيث ذاع صيت بعض هؤلاء العلماء فى أنحاء العالم الإسلامى ومن ذلك العالم الجليل عبد السلام الفترى الذى توفى (١٧٩٥) وهو نسبة إلى بحيرة فترى حيث عمل ذلك الشيخ على تنظيم الطريقة الصوفية العروسية التى أسسها العباسى بن عروس والتى انتشرت فى منطقة بحيرة فترى - تشاد ومن هنا فإن سلطنة فترى - كانم - رغم ظروف البداوة التى أخذت سمات ذلك المجتمع ورغم تفرغهم واهتمامهم بالشئون العسكرية والحربية أكثر من أى اهتمام آخر ، إلا أن كل ذلك لم يمنع من القول أن البلاد انتشرت بها الثقافة العربية الإسلامية وظهرت لها حركة فكرية علمية ثقافية سعى سلاطين البلاد إلى تشجيعها وازدهارها وتقديم كل عون وتشجيع لها حتى أتت ثمارها المرجوة فى طبع ذلك البلد الأفريقى بالطابع العربى الإسلامى .

ومن كل ذلك فإن الإسلام واللغة العربية قد لعبتا دورهما فى انتشار العلوم العربية والإسلامية فى فترى - كانم ، بل كان لها دورهما فى اثراء الحركة العلمية والفكرية والدينية مما ساعد على أن تظهر تلك البلاد بالمظهر العربى الإسلامى حتى أن بعض المكتشفين والمؤرخين عدوا ذلك الجزء من السودان الأوسط القريب من مصر وطرابلس كأنه جزء من العالم العربى حيث كان الطابع العربى والإسلامى قد ساد كل هذه الاقصاع واضحت تلك الديارة ديارا تشبعت بروح الإسلام وغدت حصنا من حصونة القوية حتى قدوم رجال الإستعمار الفرنسيين الذين داهموا هذه الأراضى وعملوا على إيقاف حركة المد الإسلامى .بل أن الحقيقة يجب أن تذكر وهو أنه رغم انتشار اللغة العربية على نطاق واسع ، إلا أن الإسلام قد حافظ على اللغات المحلية ولم تعمل اللغة العربية على محوها من البلاد رغم استخدام اللغة العربية فى كل الأمور الهامة فى إدارة شئون البلاد .

بل أن كل هذه الأمور لم تكن تتطور وتزدهر وتحرز ذلك التقدم والتطورالحضارى الإسلامى لولا وجود تلك الصلات القوية والعلاقات الوثيقة اتى ارتبطت بها تلك البلاد مع العديد من الأقطار العربية الإسلامية لاسيما تلك الأقطار التى كانت تجاورها معها حدود مباشرة ولم تكن هناك موانع طبيعية تعوق ذلك الإتصال فقد ارتبطت البولالا بعلاقات سياسية وثقافية واقتصادية مع البلدان الإسلامية ولا سيما مصر وطرابلس وتونس ووادای وباجرمی والسودان الشرقی والسودان الغربی وربما المغرب الأقصى .

لكن مصر كانت فى مقدمة الدول التى ارتبطت معها فترى - كانم بصلات سياسية وثقافية واقتصادية ومن ذلك أن أصبحت مصر كعبة العالم الإسلامى وقبله الشعوب الإسلامية حيث بها مقر الخلافة العباسية منـذ عام ٦٥٩هـ حتى سقوط الدولة المملوكية (٩٢٣هـ / ١٥١٧ م) وقد سعى سلطان البولالا السلطان عبد الجليل مؤسسى السلطنة إلى الإتصال بالخليفة العباسى بالقاهرة للحصول على تفويض شرعى وتقليد بحكمه لبلاد الكانم ، لكن تلك المحاولات قد فشلت ، لكن حفيدة عمارة (محمد رشاد) قد استطاع أن يكسب ود الخلافة العباسية وعطفها والإعتراف به ، وذلك لأن مصر كان قد عظم أمرها فى تلك البقاع وكان لهما نفوذ قوى فى السودان الأوسط وأن نفوذها كان معترفا به فى تلك الجهات لان نفوذ مصر كان يستمد من وجود مقر الخلافة العباسية بها ، ومن هنا كان الدافع الذى دفع السلطان عبد الجليل وحفيده إلى السعى إلى الخليفة العباسى بمنح ذلك التقليد انطلاقا مما كان يسود العصر بأنه لا سيادة بدون تفويض من خليفة المسلمين ، بل أن سلاطين بلاد السودان كانوا يجدون فى ذلك التقليد الشرعى نوعا من التبرك وكذلك مما يكتسبهم ذلك من الهيبه والإجلال والتقدير بين رعايهم .

كذلك كان آداء فريضة الحج والمرور بالأراضى المصرية إلى أراضى الحجاز عاملا من عوامل قيام العلاقات السياسية بين مصر وفترى - كانم وذلك لأن حجاج البولالا مع أخوانهم حجاج بلاد السودان الأوسط والغربى كانوا يمرون بمصر وبلاد المغرب لكى يتعرفوا على أهل تلك البلاد ولكى ينهلوا من تيارات الأساليب الحضارية .

بالإضافة إلى أن الحج يمثل أقوى الروابط الدينية والسياسية التى ربطت سلطنة المماليك فى مصر بدول السودان الأوسط والسودان الغربى ومن بينها بالطبع حجاج البولالا .

كذلك فإن مصر مارست دوراً ثقافيا وعلميا وفكريا لا يقل شأنا عن الدور السياسى الذى لعبته ، بل أن الدور الثقافى كان أكثر وضوحا وأشد تأثيرا على مجرى الحياة الفكرية والثقافية فى سلطنة البولالا ، وإذا كانت سلطنة البولالا قد ظهرت كقوة مؤثرة مع بداية القرن الثامن (عشر الهجرى / الرابع عشر الميلادى) فإن ذلك القرن قد شهد ظهور دولة المماليك وأصبحت أقوى وأغنى قوة إسلامية على مسرح العصور الوسطى .

ومن هنا أضحت مصر محور نشاط علمى كبير فى عصر سلاطين المماليك. قصدها العلماء وطلاب العلم فى مختلف الأقطار الإسلامية وعلى هذا فإن مصر أعدت لكى تكون مركزا للحركات الإسلامية ، ولذا كان لزاما عليها أن تقوم بدورها فى بلاد السودان بل وضعها فى تلك الحقبة التاريخية (القرن الثامن التاسع الهجرى / الرابع عشر والخامس عشر الميلادى) قد جعل لها نصيب موفور فى توجيه العالم الإسلامى وقد انفردت مصر من بين الأمم الإسلامية بهذا الإزدهار العلمى فقد بلغت فيها الحركة العلمية والأدبية درجة من التقدم بحيث أصبحت مصر مبدأنا لنشاط علمى واسع ، ومن ثم فقد استفاد طلاب وعلماء بلاد السودان وقد تأثر رجال الدين فى تلك البلاد وعلمائها بكل الإتجاهات التى ظهرت فى الأدب والثقافة من شعر ونشر وكانوا يتابعون أثار أدباء وعلماء ورجال الدين فى مصر وقد أدى ذلك إلى نهضة ثقافية إسلامية كبيرة فى تلك البلاد .

وللحقيقة فإنه لا يمكن الحديث عن أثر مصر الثقافى والحضارى فى تلك البلاد دون الحديث عن دور الأزهر فقد كان الأزهر مكانا مقصودا لشتى المسلمين ويؤمه الناس من جميع أنحاء العالم الإسلامى وذلك لما لمكانة الأزهر فى قلوب المسلمين ، ولقد قدم أبناء تلك البلاد ليشهدوا حلقات الدرس فى الجامع الأزهر وليستمعوا من شيوخه الأجلاء جهابذة العلم والفكر والمعرفة والشريعة والدين ، حيث كثرت الأروقة داخل الجامع الأزهر حيث كان منها رواق للاكراد ورواق للهنود ، رواق للصعايدة ، ورواق للأتراك ورواق للتكاروة ، ورواق للجيرت ، رواق للسنارية ، رواق دارفور ، وغيره من الأروقة المختلفة وكان رواق التكرور مخصصا للمسلمين من أبناء السنغال وسنغاى وبلاد النيجر وغينيا وساحل الذهب . وقد كان طلاب البولالا يقيمون بلا شك مع أخوانهم طلاب البلاد الأخرى فى رواق التكرور أو رواق البرينية الذى كان مخصصا لأبناء برنو كانم وربما أيضا فترى ، حيث تخرج من تلك الأروقة الشيخ عبد السلام الفترى فى ١٧٩٥م ، وهذا دليل قوى على حسن الإهتمام بهؤلاء الطلاب الذين يدرسون بالجامع الأزهر ، ومن ثم كانت تلك الأروقة عبارة عن منافذ مشرقة يطل منها الأزهر على أفريقيا السوداء الإسلامية وعلى العالم الإسلامى لتنهل من علمه الفياض الغزير ، والذى كان يؤخذ ويستوعب عن طريق حضور حلقات الدرس على النظام الذى كان متبعا وسائدا فى ذلك الحين .

ولقد كان أبناء السودان كانم – فترى منذ أن دخلوا الإسلام سنبو المذهب حيث غلب عليهم مذهب الإمام مالك فى الفقه وكان مذهب الإمام مالك يسود مصر وبلاد المغرب العربى وبلاد السودان الأوسط والشرقى والغربى ومن هنا ظلت دراسته مزدهرة بالجامع الأزهر إلى جانب دراسة المذاهب الأخرى حيث كان هذا بعدا جديداً وآخر لقدوم أبناء البولالا إلى الجامع الأزهر ولقد أشار الحسن الوزان (ليو الأفريقى) إلى أن كثيرا من علماء وفقهاء

القاهرة يأتون إلى سلطنة البولالا لمقابلة السلاطين ثم يعودون بعد مكوثهم فترة فى بلاده محملين بالهدايا الجميلة النادرة بحيث أنه كان لا يخرج أحد من عنده إلا مغموراً بفضله وفرحا بما ناله منه من عطاء وأنه كان يعامل هؤلاء العلماء والفقهاء ورجال الدين معاملة طيبة ويقابلهم بمظاهر الاكرام وحسن العطاء .

وقد أدى ذلك إلى حدوث تطور دينى وفكرى وثقافى وحضارى فى أقطار السودان المختلفة وما كان هذا يحدث لولا أن تهيأت له فرص الإتصال بمصر فى أزهى عصور ثقافتها وتطورها العلمى والثقافى وأن طلاب فترى – كانم قد استفادوا كثيرا من مزايا الحياة العلمية والتعليمية فى مصر وكما قامت مصر بدورها السياسى والثقافى مع بلاد البولالا ، فإنها قامت بدورها الإقتصادى مع تلك البلاد . ذلك لأن تلك السلطنة كانت تتعامل مع مصر وبلاد المغرب بصفة خاصة دون سائر البلاد القريبة منها حيث ساعدت طرق القوافل الممتدة من مصر وطرابلس عبر مسارات الصحراء الكبرى إلى بلاد البولالا إلى قيام روابط اقتصادية قوية وإلى تبادل السلع المختلفة بين القطرين إلى قيام حركة تجارية نشطة بين مصر وبلاد السودان ، ولقد نشط تردد التجار المصريين وازداد وصولهم إلى تلك الأنحاء ، حيث أن قرب تلك البلاد للديار المصرية قد فتح الباب على مصراعيه أمام التجار المصريين وازداد قدومهم إلى بلاد البولالا وذلك لأن الاقبال قد ازداد على التجارة المصرية حيث لاقت قبولا لدى الشعب والحكام والسلاطين وكانت مصر والبولالا تتبادل الخيول بصفة خاصة وقد أشار الحسن الوزان إلى أنه شاهد بنفسه رجلا من دمياط بمصر يقدم خيولا وأسلحة وغيرها من المواد التجارية إلى سلطان البولالا .

ومن ذلك فقد وافق قيام العلاقات الإقتصادية بين مصر والبولالا ازدهار إقتصادى فى تلك الأنحاء أدى فى فترات سابقة إلى اكتساب المعارف والخيرات الفنية ، ولقد أثر ذلك الإزدهار الإقتصادى على تلك البلاد فى القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادى ، ولقد ساعد المصريين على الوصول إلى تلك الأنحاء بتجارتهم وذهابهم فى قوافل كبيرة أنهم كانوا قد عرفوا طرق التعامل مع أهالي البلاد ، بالإضافة إلى اتقانهم معالم طرق القوافل المؤدى إلى تلك البلاد وبذلك أصبحت الطرق التجارية أكثر سهولة بسبب استخدام القوافل المصرية الدائم والمستمر لهذه البلاد .

ولقد كانت القوافل المصرية تجوب الصحراء الكبرى حاملة إليها المصنوعات المصرية لقاء ما تأتى به من منتجات محلية وقد وصل التجار المصريون حاملين بضاعتهم إلى تلك المدن الإسلامية المختلفة وتبعا للازدهار التجارى بين مصر وتلك الأقاليم فقد وجدت جاليات مصرية كثيرة فى المدن التجارية كما شهد بذلك ابن بطوطة والحسن الوزان عندما زار تلك المناطق سواء أكان هؤلاء المصريين من الفقهاء أو العلماء أو التجار ، ولقد كان وجود التجار

المصريين فى المحطات التجارية الهامة على طريق القوافل مثل تكدا وغدامسى وغات ومرزق وزويلة وفزان وكوار وبلما واير وفى المدن الكبرى أمرا مألوفا طبيعيا فى هذه المحطات وتلك المدن التى كانوا يترددون عليها ، وذلك لأن التجار المصريين كانوا يقصدون تلك لأنحاء بانتظام وبصفة مستمرة بل دائمة .

ولقد لعبت التجارة المصرية والتجار المصريين حتى بعد سقوط الدولة المملوكية تحت ضربات العثمانيين عام ١٥١٧م دوراً هاماً فى حركة الإقتصاد والسياسة والثقافة والفكر والعلم والدين فى سلطنة البولالا .

وذلك بما لهم من خيرات واسعة فى ذلك المجال والمجالات المتعددة . وهكذا إذكانت سلطنة البولالا قد ارتبطت بعلاقات سياسية وثقافية واقتصادية مع مصر فإنها بدورها ارتبطت بنفس تلك العلاقات مع طرابلس ليبيا وكذلك مع تونس لاسيما فى عصر أسرة االحفصيين كما أنها تبادلت تلك العلاقات بنفس الصورة مع بورنو وامارات الهوسا وربما وصلت تلك الصلات مع مالى وسنغاى فى السودان الغربى حيث أن هناك اشارات إلى أن نفوذ البولالا قد وصل غربا إلى شارف مدينة تمبكتو فى السودان الغربى وكذلك قامت هناك علاقات وصلات وطيدة مع ممالك السودان الشرقى دارفور وتقلى وكردفان وسنار وأيضا مع سلطنة واداى وباجرمى التى كانت أقرب السلطنات الإسلامية إليها من ناحية الشرق .

وقد أدى اتصالها بمصر وطرابلس وتونس إلى اتصالها بمعالم العالم الإسلامى جميعه بما فى ذلك الشرق الإسلامى حيث أرض الحجاز والشام وغيرها من الممالك والبلاد الإسلامية المعاصرة فى ذلك الوقت ، كما كان إتصالها مع أوربا عن طريق تلك البلاد المطلة على البحر الأبيض المتوسط لكن لكل بداية نهاية فكما ظهرت سلطنة البولالا – فترى – كانم قوية عسكريا وسياسيا منذ مطلع القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) حيث شهد ذلك القرن أقصى قوتها واتساعها وبسط نفوذها وسيادتها فى السودان الأوسط بعد سيطرتها على كانم وضمها باجرمى إلى أراضيها وفرض الجزية على أقاليم ما يسمى بواداى ، إلا أن ذلك لم يدم طويلا حيث شهد القرن السادس عشر الميلادى العاشر الهجرى، بداية النهاية حيث قام السلطان إدريس بن على غازى (دوناما) عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م بسحق البولالا والسيطرة على أراضى كانم واستعادة نجيمى العاصمة من أيديهم وفرض جزية على حاكم البولالا بعد أن رفض أن يخضع لنفوذه وبحكم اقليم كانم تحت وصاية سلطان البورنو ، إلا أن ذلك لم يقضى نهائيا على المعركة وقوة البولالا لكن شهدت نهاية ذلك القرن ١٥٩٣م قيام السلطان إدريس الوما سلطان البرنو بالقضاء النهائى على كل أثر للبولالا وضم أقليم الكانم لحكم برنو المباشر وتقسيمه إلى عشرة أقسام وعين على رأس كل إقليم حاكم من قبله ويخضع للحكم المباشر فى العاصمة برنى عاصمة بورنو .

ولقد شهدت القرن الثامن عشر الميلادى والتاسع عشر الميلادى ، تدخل سلطنة واداى التى كانت تقع إلى الشمال الشرقى منها تدخلا سافرا فى الشئون الداخلية بحيث أصبح لواداى القدرة بل النفوذ فى تعين وطرد أى حاكم لا ترضى عنه سياسة واداى وتعين أميرا بدلا منه ولقد حدثت عدة أحداث من هذا القبيل كان فيها السلطان يوسف سلطان واداى يقوم بعزل الحكام وتعين حكام غيرهم أو سجن حاكم فترة من الزمن فى عاصمة واداى (ابيشى) ثم اطلاق سراحه بعد فترة أخرى وتعيينه حاكما للبلاد وقد استمر ذلك لفترة طويلة ، بالإضافة إلى ولاية باجرمى قد انفصلت منذ القرن السابع عشر ومع بدايته بالتحديد من سيطرة البولالا واضحت امارة أو سلطنة مستقلة عن كل من البولالا وحكام كانم - برنو .

ولقد شهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى ظهور رابح الزبير كقائد أفريقى فى منطقة السودان الأوسط والسودان الغربى بحيث استطاع أن يستولى على أقاليم واداى وباجرمى وفترى وكانم وبورنو ويكون سلطنة إسلامية منذ عام ١٨٩٢م حتى ١٩٠٠م حيث بدأ فى تكوين تلك السلطنة ، لكن القوات الفرنسية الإستعمارية والإنجليزية كانت قد بدأت تدخل إلى الشرق من الساحل الغربى للقارة الأفريقية بعد أن أقامت لها قواعد وحصون على الساحل الغربى للقارة ولقد كان القائد الأفريقى رابح الزبير والسنوسيين هما أكبر قوتين وقفتا أمام الزحف الإستعمارى الفرنسى أو الإنجليزى وعلى هذا كان لابد أن يحدث الصدام بين هاتين القوتين الإسلاميتين وبين القوات الإستعمارية بعد أن أضحى سلاطين فترى - كانم برنو من الضعف والتدهور بحيث أتاح أمام رابح الزبير أن يكون تلك الإمبراطورية الإسلامية الممتدة من حدود السودان الشرقى حتى الغرب من سواحل المحيط الأطلسى .

وفى ٢٢ إبريل عام ١٩٠٠م دارت الحرب الفاصلة مع جنود الفرنسيين القادمة من ثلاث جهات مختلفة الجزائر - السنغال - الكونجو برازفيل) واحتلت داكو عاصمة رابح وطاردت ابنه فضل الله وابنه الثانى (نيانى) وظل الحكم فى اسرة البولالا حتى قامت القوات الفرنسية باسقاط السلطان كورما Chirma عام (١٣٤١هـ / ١٩٢٢) وهو آخر سلاطين البولالا وضمت فترى إلى تشاد والأجزاء الجنوبية إلى أفريقيا الوسطى وانتهى إلى الأبد حكم أسرة البولالا الذى كان قد ظهر على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية فى وسط أفريقيا منذ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) حتى القرن (الرابع عشر الهجرى / القرن العشرين) .

وبذلك طويت صفحة من صفحات النضال الإسلامى والمد الإسلامى فى وسط القارة الأفريقية قامت به سلطنة البولالا منذ القرن الرابع عشر الميلادى حتى القرن العشرين .

وفى النهاية كان لابد من الحديث الموجز عن سلطنة رابح الزبير التى ضم إليها واداى وباجرمى وفترى - كانم بورنو ، واتخذ داكو فى البورنو عاصمة له ولكن تلك السلطنة الإسلامية لم تدم أكثر من ثمانى سنوات (١٨٩٢ - ١٩٠٠) قضاها رابح الزبير فى توطيد دعائم ملكه وتكوين تلك السلطنة على انقاض السلطنات الإسلامية الأخرى التى قام بانهاء الوضع السياسى القائم بها .

وعلى هذا فكما انتهت سلطنة البولالا على أيدى القوات الفرنسية فى السودان الأوسط فإنه انتهت بقية السلطنات الأخرى على أيدى القوات الفرنسية .

وهكذا كان قدوم رجال الكشوف الجغرافيـة ورجال التيشيـر ورجال الإستعمار الغربى (الفرنسى والإنجليزى) من الأسباب القوية التى أدت إلى سقوط السلطنات الإسلامية صحيح أن رابح الزبير كان قد قوى دعائم تلك السلطانات بعد أن شاخ عمرها الزمنى لكن لو استمر رابح فى ممارسة سلطاته وتوطيد دعائم حكمه الإسلامى لكانت الصورة فى تلك المنطقة هى صورة عربية إسلامية بعكس الأوضاع فى ظل الإستعمار الفرنسى والإنجليزى .

***

**



المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

(١) الإدريسى (محمد بن محمد عبد الله ت ٥٦٠هـ) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، المغرب وأرض السودان والأندلس ، ليدن ، ١٨٩٣م .

(٢) الاصطخرى (أبو اسحاق محمد ابراهيم الفارسى ت ٣٤٦هـ) المسالك والممالك . القاهرة ، ١٩٦١م .

(٣) ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن اللواتى ت ٧٧٩هـ) تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الاسفار ٢ جزء ، القاهرة . ١٨٣٩م .

(٤) ابن حوقل : أبو القاسم النصيبى ت ٣٥٠ هـ) صورة الأرض ، ليدن ، ١٩٣٨م .

(٥) ابن خدون (عبد الله بن محمد ت ٨٠٩ هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر القاهرة، ١٢٨٤م .

(٦) ابن سعيد المغربى ت ٦٨٥هـ (بسط الأرض فى الطول والعرض . تطوان) ١٩٥٨م

(٧) البكرى : أبو عبد الله بن عبد العزيز البكرى ت ٨٤٧ هـ) المغرب بذكر بلاد أفريقيا والمغرب ، الجزائر ، ١٨٥٧م .

(٨) التنبكتى : (أحمد بابا ت ١٠٣٦هـ) نيل الإبتهاج بتطريز الديباج ، القاهرة ١٢٣٩هـ .

(٩) ابن سعيد : النجوم الزاهرة فى حلى مصر والقاهرة ، تحقيق حسين نصار . القاهرة ١٩٧٠م .

(١٠) ابن رستة : أبو على بن أحمد بن عمر بن رستة : الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١م.

(١١) التونسى : محمد بن عمر ت ١٨٠٧) تشحيذ الأذهان يسيره بلاد العرب والسودان
تحقيق خليل عساكر ومصطفى مسعد . القاهرة ، ١٩٦٥م .
(١٢) الزيانى : سليمان رصد الحنفى : كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر ، القاهرة ، ١٣٢٠ هـ .
(١٣) السلاوى : أحمد بن خالد الناصرى : الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٥م .
(١٤) السعدى ، (عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السعدى ت ١٦٦٥م) تاريخ السودان ، نشرة هو داس باريس ١٨٩٨م .
(١٥) السيوطى : عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ٢جزء القاهرة ، ١٩٥٩م .
(١٦) العمرى : شهاب الدين بن العمرى ت ٧٤٩هـ التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ١٣١٣هـ .
(١٧) العمرى : ابن فضل الله ت ٧٤٢هـ) مسالك الإبصار فى ممالك الإمصار: مخطوط دار الكتب رقم ٩٩ معارف عامة .
(١٨) القلقشندى : (أبو العباسى أحمد بن على ت ٨١٢هـ) صبح الأعشى فى صناعة الانشا ١٤جزء ، القاهرة ، ١٩٢٢م .
(١٩) المقدسى : محمد بن محمد ت ٣٨٠هـ : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ليدن ، ١٩٠٩م
(٢٠) المقريزى : أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المقريزى ت ٨٤٥هـ) المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والإثار القاهرة ، ١٣٢٤هـ .
(٢١) الحسن الوزان (ليو الأفريقى) حسن بن محمد الوزان ت ١٥٤٠م) وصف أفريقيا الرياض ، ١٣٩٩هـ .
(٢٢) ياقوت (أبو عبد الله ياقوت الحموى ت ٦٢٦هـ) معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦م.

(٢٣) اليعقوبى : (أحمد بن أبى يعقوب ت ٨٢٠ هـ) كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١م .
(٢٤) أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل محمد بن عمر ت ٧٣٢هـ) تقويم البلدان باريس ١٨٤٠م .
(٢٥) محمد يلو بن عثمان بن قودى ت ١٢٥٣هـ اتفاق المسبور بذكر بلاد النكرور القاهرة ، ١٣٨٣هـ .
(٢٦) المسعودى أبو الحسن على بن الحسين على المسعودى ت ٣٤٥ هـ مروج الذهب ومعادن الجوهر . باريس ، ١٨٧٤م .
* عبد الفتاح مقلد الغنيمى : حركة المد الإسلامى فى غرب أفريقيا ، القاهرة ١٩٧٥ .
* عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والعروبة فى السودان القاهرة ، ١٩٧٥.
* عبد الفتاح الغنيمى : انتشار الإسلام فى حوض الكونغو : تحت الطبع .
(٢٧) الألورى ، آدم عبد الله : موجز تاريخ نيجيريا . بيروت ، ١٩٦٥م .
(٢٨) إبراهيم على طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية . القاهرة ١٩٧٥م .
(٢٩) إبراهيم على طرخان : دولة مالى الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٣م.
(٣٠) أحمد سويلم العمرى : العرب والأفريقيون ، القاهرة . ١٩٦٧م .
(٣١) أحمد نجم فليجة ، يسرى عبد الرازق الجوهرى : أفريقية جنوب الصحراء الإسكندرية ١٩٦٧م .
(٣٢) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى . القاهرة ١٩٥٧م.
(٣٢) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، القاهرة ١٩٥٨م .
(٣٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المملوكى فى مصر والشام . القاهرة ١٩٦٣م .
(٣٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عهد سلاطين المماليك . القاهرة ١٩٦٣م .
(٣٥) زاهر رياض : استعمار أفريقيا القاهرة . ١٩٦٥م .
(٣٦) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط . القاهرة ١٩٧٢م .

(٣٧) جمال زكريا قاسم : الروابط العربية الأفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية (فصل) القاهرة ١٩٧٧م
(٣٨) عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية . القاهرة ١٩٦٢م .
(٣٩) عبد الرحمن زكى : مدائن إسلامية . القاهرة ، ١٩٥٩م .
(٤٠) عبد الرحمن زكى : تراث مصر فى الحضارة الإسلامية . القاهرة ، ١٩٥١م .
(٤١) عبد الرحمن زكى : الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقيا . القاهرة ، ١٩٥٩م .
(٤٢) عبد القادر زيادية : مملكة سنغاى فى عهد الإسكين . الجزائر ، ١٩٧١م .
(٤٣) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول . القاهرة ، ١٩٤٧م .
(٤٤) عز الدين أحمد موسى : النشاط الإقتصادى فى المغرب الإسلامى . بيروت ١٩٨٣م.
(٤٥) إبراهيم صالح بن يونس : تاريخ الإسلام وحياة العرب فى إمبراطورية كانم – برنو . الخرطوم ١٩٧٠م .
(٤٦) عبد اللطيف البرغوتى : التاريخ الليبى القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامى . بيروت ، ١٩٧١م .
(٤٧) عبد العزيز أمين عبد المجيد : التربية فى السودان . القاهرة ، ١٩٤٩م .
(٤٨) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان . القاهرة ، ١٩٥٣م .
(٤٩) عبد المجيد عابدين : صور من وحدة الفكر العربى فى أفريقيا . القاهرة ، ١٩٧٠م .
(٥٠) فيليب رفلة : الجغرافية السياسية الأفريقية . القاهرة ، ١٩٦٩م .
(٥١) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر : الحالة السياسية والإقتصادية القاهرة ، ١٩٧٥م .
(٥٢) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية . القاهرة . ١٩٧٥م .
(٥٣) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر . القاهرة ، ١٩٧٥م .

(٥٤) محمد عبد المنعم خفاجي : الأهر فى الف عام . القاهرة ، ١٣٧٤هـ .
(٥٥) محمد عوض محمد : السودان الشمالى . سكانة وقبائله . القاهرة ، ١٩٥١م .
(٥٦) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية . القاهرة ، ١٩٦٥م .
(٥٧) محمد المعتصم سيد : القاهرة وحضارة الإسلام فى أفريقيا . القاهرة ، ١٩٦٥م .
(٥٨) محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى (فصل) القاهرة ، ١٩٧٧م .
(٥٩) محمد محمد أمين : علاقات دولتى مالى وسنغاى بمصر فى عصر سلاطين المماليك . القاهرة ، ١٩٧٨م .
(٦٠) محمد عبد الغنى سعودى : الإقتصاد الأفريقى والتجارة الدولية . القاهرة ، ١٩٧٣م.
(٦١) محمد عبد الغنى سعودى : الاتصالات العربية الأفريقية فى العصور القديمة (فصل) القاهرة ، ١٩٧٨م .
(٦٢) نعيم زكى فهى : طرق التجاة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب . القاهرة ١٩٧٣م .
(٦٣) نعيم قداح : حضارة الإسلام وحضارة أوربا فى أفريقيا الغربية . الجزائر ، ١٩٧٥م .
(٦٤) نعيم قداح : أفريقيا الغربية فى ظل الإسلام . كوناكرى ١٩٦٠م .
(٦٥) محمد عبد الفتاح إبراهيم : أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا . القاهرة . د ، ت .
(٦٦) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر وتاريخه وتطوره . القاهرة ، ١٩٦٤ .
(٦٧) دائرة المعارف الإسلامية مادة باجرمى ، كانم ، برنو ، واداى ، فترى .
(٦٨) مؤتمر العالم الإسلامى : تقويم البلدان الإسلامية . كراتشى ، ١٩٦٤م .
(٦٩) يسرى الجوهرى : السلالات البشرية . الإسكندرية ، ١٩٦٦م .
(٧٠) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر . القاهرة ، ١٩٥٤م .

***

ثانيا : المراجع (المترجمة) :

(١) ارنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون . القاهرة ١٩٥٧م .

(٢) بوركهارت . جون لوس : رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ، ترجمة فؤاد أندراوس القاهرة ، ١٩٥٩م .

(٣) جوليان ، شارل أندرية : تاريخ أفريقيا ، ترجمة طلعت أباظة . القاهرة ، ١٩٦٨م .

(٤) ريمون فيرون : الصحراء الكبرى ترجمة جمال الديناصورى ، القاهرة ١٩٦٣م .

(٥) سلجمان س . ج : السلالات البشرية فى أفريقية ، ترجمة يوسف خليل ، القاهرة ١٩٥٩م .

(٦) ديشان ، هوبير : الديانات فى أفريقيا السوداء ترجمة أحمد صادق حمدى : القاهرة ١٩٥٦م .

(٧) لوثورب ، استودارد : حاضر العالم الإسلامى . تعليق شكيب أرسلان ترجمة عجاج نهويض . القاهرة ، ١٣٤٣هـ .

(٨) جونبيه أ . ف : الصحراء : ترجمة أحمد كمال يونس . القاهرة ، ١٩٥٧م .

(٩) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى – ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة . القاهرة ، ١٩٤٨م .

(١٠) بوفل : الممالك الإسلامية فى غرب أفريقيا وأثرها فى تجارة الذهب ترجمة زاهر رياض . القاهرة ، ١٩٦٨م.

(١١) أركل : مصر الفرعونية وآثارها فى السودان الشمالى ترجمة عبد السيد غوردون القاهرة ، ١٩٥٦م .

***

ثالثا : الرسائل الأكاديمية (الجامعية) :

(١) أحمد الياس حسين : الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى (ماجيستير) آداب – القاهرة ، ١٩٧٦م .

(٢) حامد مصطفى عمار : علاقات مصر بالبلاد الأفريقية فى العصور الوسطى (ماجيستير) آداب . القاهرة ، ١٩٤٥م .

(٣) زين العبدين السراج : دولة كانم الإسلامية (ماجيستير) آداب – القاهرة ١٩٧٥م .

(٤) شوقى عبد القوى حبيب : العلاقات التجارية بين مصر والدول الأفريقية فى عصر المماليك (ماجستير الدراسات الأفريقية) جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م .

(٥) سر الختم عثمان : العلاقات بين مصر والسودان فى العصور الوسطى (ماجيستير) آداب – القاهرة ، ١٩٦٩م .

(٦) عبد العظيم حامد خطاب : قنصوة الغورى ونهاية الدولة المملوكية فى مصر والشام . (دكتوراه) آداب – جامعة عين شمس ، ١٩٧٣م .

(٧) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة البرنو الإسلامية (ماجستير الدراسات الأفريقية) جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م .

(٨) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الإسلامية (دكتوراه) جامعة أسيوط ، ١٩٨٣م .

(٩) عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر (دكتوراه) آداب – القاهرة ١٩٧٣م.

(١٠) على أبو بكر : الثقافة العربية فى نيجيريا (دكتوراه) آداب – القاهرة ، ١٩٦٨م .

(١١) نبيلة حسن محمد : انتشار الإسلام فى السودان الغربى (ماجستير) آداب الأسكندرية ، ١٩٧١م .

(١٢) مصطفى أحمد السيوفى : تاريـخ التجارة الخارجيـة فى مصر أبـان الحكم العثمانى (ماجستير) آداب - القاهرة ، ١٩٧٥م .

رابعا : دوريات :

(١) إبراهيم طرخان : الإسلام واللغة العربية فى غرب أفريقيا . مجلة كلية الآداب . جامعة القاهرة ، ١٩٦٥م .

***

المراجع الأجنبية :

1- Alexander, L.B : From Niger to Nile. Cambridge, 1971 .
2- Ahmed ibn Fartha : Mai idris Alooma of Bornu. London, 1970 .
3- Arkell, A.J : AHistory of the sudan. London, 1962 .
4- Barth, H : Traveles in north and central Africa. 3vol
London, 1958 .
5- Bovill,E.W : The golden trade of the Moors. London, 1933 .
6- Bovill, E.W : Carvans of the old shara. London, 1936 .
7- Burns, A : History of Nigeria . London, 1972 .
8- Church, R.H : west Africa London, 1967 .
9- Cooley, W.D : The Negro Land of the Arabs. London, 1966 .
10- Crowder, M : story of Nigeria : London, 1962 .
11- Crowder, M : History of west Africa : London, 1976 .
12- Davidson, B : old Africa Redicovered . London, 1961 .
13- Flint, J.E : A History of Nigeria and Ghana. London, 1966 .
14- Firtzgerh, W : Africa . 1964 .
15- Fisher . A.B ; Slavery and Mulim society in Africa. London, 1970 .
16- Greenberg, J : The influence of Islam on Sudanese Relion New york 1964 .
17- Johnston, H.H : The opning of Africa. London, 1911 .
18- Goutier, E.F : le passe de L'Afrique du Nord. Paris, 1937 .
19- Carbou, H : Lareglon du Chad et du quadi . Paris, 1840.
20- Dike, k.c : Trade and politics in Niger Delta, oxford, 1956 .
21- Hogben, S.J : The Mohammade emirtes of Nigeria, London, 1930 .
22- Hodgkin, T : Nigeria perspectives London, 1960 .
23- Hodgkin, T : The kingdoms of western Sudan. London, 1463 .
24- Lyon, G : Travels in Northern Africa. London, 1821 .
25- Lewis, I.M : Islam in tropical Africa : oxford . 1964 .
26- Leo Africanus, : A History and discription of Africa. London, 1864 .
28- Meek, C.K : The Northern tribes of Nigeria . London, 1967 .
29- Macmichaal, A. H : A History of the Arabs in the Sudan. London, 1922 .
30- Mcewan, J.H : Africa From the early time to 1800 . London, 1960 .
31- Murdock, g.P : Africa, its people and theirculture History,New york, 1959 .
32- Lebeuf, J.P : Histiore de la Region Tchadienne . Paris, 1922

33- Nachtigal, G : Shara and Sudan. London, 1971 .
34- Oliver, R : The down of African History. London , 1951.
35- Okafor, A : Ahistory of west Africa . London, 1953 .
36- Levztion, N : The early states of western Sudan London London, 1960 .
37- Shinnie, M : Ancient African kingdoms. London, 1968 .
38- Palmer, R : The Bornu sahara and sudan. London, 1436 .
39- Palmer, R : Asudanese Memoires, London, 1963 .
40- Seligman, C. G : Egypt and Negro Africa. London, 1943
41- Trim inghan, J. S : A History of Islam in west Africa. London, 1960 .
42- Trimingham, J. S ; The influence of Islam Upen Africa. London, 1985 .
43- Urroy, Y : Histiore de l'empire du Bornou. Paris, 1949 .
44- Urroy, Y : Histiore de popuation du Soudan Central. Paris, 1936
45- Welz, Terence : Trade between Egypt and Bilad Elsudan, Cairo, 1979 .
46- Ward, E. W : History of Africa. London, 1960 .
47- Wells, C : introduction to Africa. New york, 1954 .
48- Strlde,G:People and the Empire of west Africa.London, 1978 .
49- Vischer,A : Across the shara from Tropoli to Bornu. London, 1968 .

***

**